الفصل الرابع عشر

مجموع المصنفات الأبقراطية

سأتولى مناقشة التقاليد الأبقراطية بإيجاز فى آخر هذا الفصل . أما الآن فلابدّ لى من الاعتراف بأن معرفتى بنصوص أبقراط كانت، حتى وقت قريب ، مستمدة فى الأغلب من الطبعة الأنيقة التى أعدها إميل ليتريه Emile Littré وألحق بمجلدها العاشر فهرساً دقيقاً مفصلا[1] . إن علماء اللغة « الفيلولوجيين » الذين عانوا كثيراً فى إعداد الطبعة التاسعة للنص الأبقراطى يمكنهم أن يطعنوا فى عمل ليتريه ؛ إلا أن أمثال هذه المطاعن لا تنقص من مكانته العالية ، ولا ترفع منزلتهم الوضيعة قيد أنملة . ولقد مر بين يدى ، خلال السنين الثلاثين الماضية ، عدد من طبعات هذا النص ، وترجماته ومختصراته ، وحلل بعضها فى مجلة إيزيس . وحين كنت أعد هذا الفصل أخذت ، حرصاً منى على تحديد معلوماتى ، أتفحص فى كثير من الدقة ، المختارات التى نشرها باليونانية والإنجليزية وليم هنرى William Henry وصموئيل جونز Samuel Jones وإدوارد تيودور وتينجتون[2] Edward Theodore Withington فى مكتبة لويب للكلاسيكيات . لم يكن ليتريه من اللغويين المدعين ، بل أجاد اليونانية وأحاط بعلم الطب ، وهو حيث واتاه التوفيق مرشد ممتاز . أما جونز ووتينجتون فقد كان من حظهما أن أديا نصيبهما اليسير من هذا العمل بعده بثلاثة أرباع القرن . وأنا أميل إليهما وأرغب بوجه عام فى الأخذ بتوجيهاتهما فى المسائل المختلف فيها . كنظرية جونز مثلا فى نتائج الملاريا الوبيلة والبالغة الأثر فى العالم القديم . أما ويتنجتون فأنا مدين بصورة مباشرة لكثير من دراساته فى تاريخ الطب . وبصورة غير مباشرة لمساهمته الطبية فى مراجعة معجم لدل Liddell وسكوت Scott اليونانى — الإنجليزى[3] .

أصالة كل أو بعض المؤلفات الأبقراطية

لا يعرف على وجه التحقيق مؤلفو تلك الكتب التى أشار إليها أفلاطون ومينونMenon ، ومن هنا دعوى المشككين بأن « أبقراط » « اسم بلا مؤلفات» وأن ليس ثمة مؤلف أبقراطى أصيل . وموضوع أصالة مؤلفات أبقراط يختلف اختلافاً جوهرياً عما يقال عن أصالة مؤلفات أفلاطون وأرسطو ، لأن بين أيدينا من مؤلفات هذين قدراً كافياً ثبتت أصالته ، ويمكن أن يتخذ مقياساً للحكم على غيره . والمسألة التى نحن بصددها أقرب إلى معضلة مؤلف الإلياذة والأوديسا. ونستطيع أن نسلم بصحة كثير من المصنفات الأبقراطية بالروح نفسها وبالتحفظات عينها التى نسلم على أساسها بصحة أشعار هوميروس . على أن شخصية أبقراط ملموسة أكثر جداً من شخصية هوميروس .

وهذا القدر كاف من الناحية العلمية ، لكن ينبغى أن نكون حذرين . فإن الروح والمنهج الأبقراطى تحددا بالاستناد إلى مجموع من المؤلفات الأبقراطية ، ومن المتعذر علينا الادعاء بأن فئة معينة من هذه المؤلفات صحيحة بالضرورة ، لأنها تتميز بالطابع الأبقراطى لا غير ، وإلا وقعنا فى حلقة مفرغة . على أن ما أورده أفلاطون ومينون كان لتحديد المميزات الأساسية للتعليم الأبقراطى، وربما ساعد على تنظيم المصنفات الأبقراطية فى جدول تبعاً لأرجحية أصالتها . وليس فى وسعنا أكثر من ذلك ، وفيه ما يفى بالغرض الرئيسى الذى نقصد إليه .

وبصرف النظر عن ترجيح الباحثين لصحة نسبة المصنفات الأبقراطية فإن الموجود منها لدينا فى مراتب مختلفة من مراحل التأليف وجودة الحفظ . وبعضها جيد التأليف ، وبعضها الآخر أقل جودة ، وبعض ثالث ما زال على صورة مسودة أو ملاحظات أولية لم يقدر لها أن تحرر كما ينبغى . ومنها (ككتاب الأخلاط مثلا) ما جاء تأليفه بمحض المصادفة . وفوق هذا منها ما لم يصل إلينا بنصه الأصلى الكامل . لأن أقدم هذه المؤلفات نقل إلينا على صورة أدراج

(volumina) فكانت بذلك أكثر تعرضاً للعطب من تلك التى وصلت بالشكل المعهود . وأطراف الدرج واهية جداً لا تلبث أن تتكسر وتتساقط ، الأمر الذى يوضح السبب فى أن الكثير من المخطوطات القديمة (لا الأبقراطية وحدها) وصلنا بلا أول ولا آخر . ولم يؤثر هذا على النصوص الأدبية ، لأنه عرف فيها وكانت محترمة ، فلم يعتد عليها، وأما المصنفات الطبية التى لم يتيسر دائماً لأمناء المكتبات أو للناشرين الوقوف على معانيها والتثبت من تراكيبها فإن أقسامها المفقودة عرضت أحياناً بنص آخر . وقد يقسم الدرج الواحد إلى قسمين أو أكثر ، وقد تجمع أقسام من أدراج مختلفة فى درج واحد . والواقع أن تأليف بعض الكتب الأبقراطية يتعذر تفسيره على غير هذا النحو. وباختصار فإن بعض هذه النصوص سيئ التأليف ، وبعضها الآخر — سواء أكان حسن التأليف أم سيئه — لم يصل إلينا بنصه الأصلى . وكانت الأدراج تتمزق عرضاً فيتولى جمع أطرافها المتباينة قوم مهملون .

وتختلف مشتملات المؤلفات الأبقراطية بقدر ما تختلف أشكالها . فبعضها موضوع للأطباء أو لطلاب الطب ، وبعضها لغير المختصين ، وبعضها الآخر دونه المدرسون ليستعينوا به فقط على تنسيق محاضراتهم . أو الطلاب تحت التمرين ليعززوا به ذاكراتهم . ومنها مذكرات دون فيها الطبيب نتائج اختباره ، أو مقالات وبحوث كتبت بعناية خاصة لأغراض إقناعية أو بيانية . وإذا كانت أكثر الكتب تمثل تعاليم مدرسة كوس فإن بعضها يعكس تعاليم المدرسة المجاورة والمنافسة فى كنيدوس ، وبعض آراء لعلماء آخرين . ويسهل علينا إدراك ذلك كله إن لاحظنا أن المجموعة التى انتهت إلينا كانت فى الأصل مكتبة كوس (أو قسما منها مع زيادات محتملة من الخارج) . فقد كان لمعبد كوس أو لمدرستها أو لنقابتها مكتبة تجمع فيها كتب المؤلفين الكوسيين وغير الكوسيين إهداء أو شراء ، وحرص على ذلك أطباء كوس أنفسهم حبا فى الاستطلاع أو رغبة فى الدرس ، أو أحرزها لها أطباء كوس من أجل الدرس أو بدافع الفضول .

وإزاء هذه الفوارق فى الأشكال والمشتملات تتجلى للباحث الصعوبة البالغة . أو بالأحرى الاستحالة . التى تقوم دون تحرى أصالة كل نص . هل من المستطاع أن ينسب هذا النص أو ذاك إلى أبقراط . أو إلى أحد أتباعه الأدنين أو الأباعد ؟ أو أن كاتبه أحد المغالطين المعنيين بأمر الطب . أو أحد الفلاسفة الذين هم أقل احتفالا بالطب منهم بالأفكار العامة ؟ وفيما يتعلق بالناحية الأخيرة يثبت الطابع الخاص — كأن يكون أبيقوريًّا أو رواقيًّا — تأخر عهد التأليف . وهنا يغدو التحقق من صحة النسبة إلى المؤلف بالذات مسألة قليلة الخطر نسبيًّا . ذلك أن الذى يعنينا خاصة إنما هو تمييز المصنفات الأبقراطية من مصنفات المدارس الأخرى . وترتيبها . من ثم . فى سياق تاريخى تقريبى . إن جانباً من هذه المصنفات قديم واضح القدم . سابق للعهد الأبقراطى . وبعضها يعود إلى العهد الأبقراطى والمدرسة الأبقراطية . سواء أكان أبقراط بالذات هو واضعه أم كان سواه . والبعض الآخر متأخر عن العهد الأبقراطى . لكنه مع ذلك استمرار للتعليم الأبقراطى . ومما يزيد المشكلة تعقيداً أن بعض المصنفات المتأخرة قد نسجت فى كيانه نواة تعليم قديم . ذلك أن الكثير من الكتب يشبه المبانى التاريخية التى بنيت أجزاؤها ثم رممت فى عهود مختلفة . حتى ليكاد السؤال عن تاريخ بنائها يغدو بلا معنى ؛ إذ على الباحث أن يحقق ، قدر الإمكان ، تاريخ كل طبقة على حدة . ومع ذلك فالباحث الذى يجهد فى تعيين تاريخ كل واحدمن الكتب الأبقراطية لا يلبث أن يجد أن الظفر بحلول تامة دقيقة أمر بعيد المنال . وينبغى ألا نحاول المستحيل بل نبذل غاية الجهد ونقنع بذلك .

إن علماء اللغة يأملون أن يحلوا مثل هذه المعضلات عن طريق نقد النصوص ، أى عن طريق البحث اللغوى . إلا أن ذلك يعرض الباحث لشبهات مماثلة . إذ كيف السبيل إلى التثبت من أن اللغة التى بلغتنا هى لغة الأصل ؟ إن الحرص على استخراج كل الخصائص اللغوية التى يتميز بها نص ما ضرب من الغرور لدى المحدثين . وكان قدماء الناشرين (كالهيلينيين مثلا) أكثر

عناية بالمادة الطبية منهم بأسلوب التعبير[٤]، فلم يترددوا فى تجديده إذا ما خطر لهم ذلك . وغالب الظن أن فتور الهمة أو ازدياد العمل قعد بهم — ولحسن الحظ — عن أن يقدموا على ذلك ، وآثروا أن يحافظوا فى نسخهم ، قليلا أو كثيراً ، على النص الأصلى أخذا بأهون السبل .

وهنالك ظاهرة غريبة فى جميع النصوص الطبية القديمة ، وهى أنها كلها مكتوبة باللهجة الأيونية . وهذا أمر مدهش لأن جزيرة كوس (وكذلك كنيدوس) اجتاحتهما جيوش الدوريين Dorians وبسطت عليهما سلطانها ، ومع هذا بلغ الصيت الثقافى للمستعمرات الأيونية المجاورة حدا غدت معه اللهجة الأيونية رمزاً للعلم والنبل « والأناقة والكياسة » . ولنذكر أن هيرودوت الذى لم يكن أعرق فى نسبته الأيونية من أبقراط كتب هو الآخر باللهجة الأيونية ، وهذا مما يساعد الباحث ولو إلى مدى محدود ، لأن مجرد وجود الكتاب الطبى باللغة الأيونية لا يثبت ضرورة أنه تابع للعهد الأبقراطى ، لأن اللغة إذا اقترنت بموضوع ما درج استخدامها فى كل المؤلفات المتصلة به[٥] . على أن اللغة الأيونية التى دونت بها المصنفات الأبقراطية ليست واحدة ، بل هى فروع من الأيونية الأم ، ويكاد يكون ذلك شبيهاً باختلاف اللهجات فى مؤلفات هيرودوت ، لأن اللغة كانت بالنسبة إلى المؤلفين مصطنعة تختلف عن اللغة التى كانوا يتكلمون[٦] . والكتاب الذين كانوا يقيمون فى تلك الزاوية الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى خضعوا لمؤثرات كثيرة (دورية وكريتية وكارية وأيونية وأتيكية) بحيث غدت لهجتهم تقبل فى يسر مؤثرات وخصائص متنوعة .

الشروح الأولى

إن ما قام به الشراح الأولون سهل علينا درس المصنفات الأبقراطية ، ولكن لسوء الحظ أقدمهم إطلاقاً ، وهو هيروفيلوس الخلقدونى Herophilos of Chalcedon (النصف الأول من القرن الثالث ق.م.)، متأخر ، بل متأخر جداً بحيث لا يمكننا من التفريق بين مصنفات القرن الرابع وتلك التى تقدمتها فى

القرن السابق . هذا إلى أنه لم يكن شارحاً فحسب بل كان خبيراً فى علم التشريح ومن أعظم المشتغلين به فى التاريخ القديم . ويليه من الشراح اثنان من تلاميذه هما باخيوس التناجرى[٧] Bacchios of Tanagra وفيلينوس الكوسى[٨] Philinos of Cos أما باخيوس فقد نشر كتاب الأوبئة الثالث Epidemics III وعلق على ثلاثة من المصنفات الأبقراطية الأخرى ، وألف معجماً للألفاظ العويصة . وأما فيلينوس (ويعتبر مؤسس مدرسة الطب التجريبى) فقد قيل إنه وضع بعض الشروح الأبقراطية ، وألف ستة كتب عارض بها باخيوس . وغنى عن البيان أن تصفح الآراء المتباينة التى خلفها الشراح الأبقراطيون فى القرن الثالث من الأمور المفيدة ، لكن هذه النصوص ضاعت كلها .

واشتهر فى النصف الأول من القرن الأول ق.م . ثلاثة من الشراح البارزين هم هيرقليديس التارنتى Heraclides of Tarentum وجلوسياس التارنتى Glaucias of Tarentum وأبوللونيوس الكيتيونى Apollonios of Cition وفى القرن الأول للميلاد كان كلسوس Celsus (النصف الأول من القرن الأول)[٩] كثير الاعتماد على المصنفات الأبقراطية . وعمد ايروتيانوس (النصف الثانى من القرن الأول) وهيرودوت (النصف الثانى من القرن الأول)[١٠] . وكلاهما من روما ، إلى وضع بعض الحواشى التوضيحية . وأهم الشراح القدماء وأوسعهم عملا هو جالينوس (النصف الثانى من القرن الثانى) . فقد وضع من الشروح على مؤلفات أبقراط ما قرن بين الاسمين . حتى غدا الكثيرون من العلماء (غير الواقفين على تاريخ الطب) يتحدثون عنهما معاً — أبقراط وجالينوس — كما لو كانا أخوين توأمين وكأنهما يمثلان عصراً واحداً ومدرسة واحدة . وهذا أمر فى غاية السخف لأنه يفصل بين الرجلين ستة قرون من الزمان . فقرب جالينوس من أبى الطب شبيه بقربنا نحن من أبى الشعر الإنجليزى — جيوفرى تشوسر Geoffrey Chaucer .

وبين المؤلفات التى وضعها جالينوس كتاب يبحث فى الصحيح والمنحول من كتب أبقراط ، De genuinis scriptis Hippocratis ، وقد فقد، وأشار إليه

حنين بن إسحق (النصف الثانى من القرن التاسع)[١١] فى فهرسه ، مقرراً أنه كانت لديه نسخة منه . وأنه أعد له ترجمة وخلاصة بالسريانية خص بها عيسى بن يحيى ، ونقل هذه الترجمة السريانية إلى العربية ابنه اسحق بن حنين (النصف الثانى من القرن التاسع) وقدمها لعلى بن يحيى[١٢]، وعنوانها «كتاب فى كتب أبقراط الصحيحة وغير الصحيحة» ، والظفر بهذا الكتاب ونشر نصه العربى أو ترجمته أمر مرغوب فيه للغاية .

عرف با خيوس ثلاثة وعشرين مصنفاً تقريباً من المصنفات الأبقراطية ، وعرف منها إيروتيانوس تسعة وأربعين . ويشتمل الفهرس الملحق بطبعة ليتريه على سبعين . وإذا كان ما عرفه إيروتيانوس قد بلغ تسعة وأربعين ، ففى هذا ما يؤذن بأن زمانه عرف نوعاً من القانون الأبقراطى . ولعل كلمة « قانون » أقوى قليلا مما ينبغى أن نقول ، لأنه لا سبيل إلى قانون إلا إن كانت هنالك سلطة تتولى إصداره . والراجح أن المجموع الأبقراطى ، فى ذلك الزمن القديم ، لم يزد كثيراً عن مجموعة من المجلدات شبيهة بتلك المجموعات ذات الموضوع الواحد التى تنسق على أساسها بعض المكتبات . وقد عرف علماء البيزنطيين فى القرن السابع ، أو قبل ذلك بكثير[١٣]، بعض أمثال هذه المجموعات ، ثم ترجمت فيما بعد — كلها أو بعضها — إلى السريانية والعربية .

ولنعد الآن إلى التقاليد اليونانية ، وتستطيع المخطوطات أن تمدنا بأوثق المعلومات منها . لكن هذه المخطوطات تصعد لسوء الحظ ، إلى عصر متأخر ، ولا يتخطى شىء منها القرن العاشر . وتشتمل المخطوطات القديمة على قوائم للمصنفات الأبقراطية ، وأقدمها مخطوط فندوبنسيس Vindobensis med. IV من القرن العاشر ، وفيه اثنا عشر مصنفاً لاغير . ويشتمل مخطوط ماركيانوس فنيتوس Marcianus Venetus 269 فى القرن الحادى عشر على ثمانية وخمسين . ويصعد مخطوط فاتيكانوس جراىكوس Vaticanus Graecus 276, فى القرن الثانى عشر إلى اثنين وستين[١٤] .

النسخ المطبوعة

كان أول ما طبع من مؤلفات أبقراط ترجمات لاتينية لبعض مقالاته المتفرقة ، أو بحوثه القليلة . وخير مثل لذلك طبعات أرتسيلا Articella (١٤٧٦ — ١٥٠٠)[١٥] . وهناك طبعات قديمة أخرى ، ارجع فيها إلى مقال كلبس Klebs وما أثبتناه فى تعليقاتنا هنا . وبالجملة مصنفات أبقراط هى أشهر المطبوعات العلمية القديمة ، لأنه كان ثالث ثلاثة اشتهروا بين المؤلفين القدامى ، وأولهم وثانيهم — وهما أسبق منه بشوط بعيد — البير الكبير وأرسطو[١٦].

وأول نشر عام لمؤلفات أبقراط هو تلك الطبعة اللاتينية التى أعدها فابيوس كالفوس Fabius Calvus (٧٢٣ ص ، روما ١٥٢٥) ، والطبعة اليونانية التى أخرجتها مؤسسة ألدين Greek Aldine (٢٣٣ ص ، البندقية ١٥٢٦) ، وكلتاهما على أوراق ذات قطع كبير ، folio volumes والثانية هى الطبعة الأولى الحقيقية (شكل ٧٠) وهذه هى الحلقة الأولى لسلسلة طويلة من النشر . وأهم الطبعات القديمة الطبعة اليونانية الثانية التى أعدها جانوس كروناريوس Janus Cornarius (بال ١٥٣٨) (شكل ٧١) ، واليونانية — اللاتينية التى أخرجها أنيوس فوس Anuce Foes (على أوراق كبيرة القطع folio فرانكفورت ١٥٩٥ ، وقد تكرر طبعها مرات كثيرة) على أن يرجع عند استعمالها إلى معجم فوس Oeconomia Hippocratis alphabeti serie distincta ، (على أوراق كبيرة القطع folio ، فرانكفورت ١٥٨٨) (شكل ٧٢) ، واليونانية اللاتينية التى قام بها جوان أنطونيوس فان درلندن Joan. Antonides Van der Linden (مجلدان من قطع الثمن octavo ، ليدن ١٦٦٥)[١٧]. ويكفى أن نذكر من بين ما نشر أخيراً الطبعة اليونانية الفرنسية التى أعدها ليتريه E. Littré (عشرة مجلدات ، باريس ١٨٣٩ — ١٨٦١) (شكل ٧٣) ، والطبعة اليونانية التى أخرجها فرانسيسكوس زخاريا س أرمرنس Franciscus Zacharias Ermerins (ثلاثة مجلدات ، أوترخت ١٨٥٩ — ١٨٦٤) ، والطبعة اليونانية لهيجو كوليڤاين Hugo Kuhlewein (مجلدان ، ١٨٩٤ — ١٩٠٢)

إن مجموع مؤلفات الطب اليونانى Corpus medicorum graecorum الذى ترعاه الأكاديميات الألمانية يضم ، ولا عجب ، المؤلفات الأبقراطية ، ولم يظهر منها إلا قسم واحد يشتمل على اثنى عشر كتاباً حررها هرمان ديلز Hermann Diels وج.ل. هايبرج J.L. Heiberg ، المجلد الأول القسم الأول (١٥٨ ص . ليبزج ١٩٢٧)[١٨]. وهذا المجموع يلتزم ترقيم صفحات طبعة ليتريه ، وفى ذلك اعتراف لها بفضل عظيم .

والترجمتان الإنجليزيتان البارزتان تمت أولاهما على يد فرانسيس ادمز Francis Adams (فى مجلدين ، لندن جمعية سيدنهام ، ١٨٤٩) ، والثانية ، وهى أحدث ، على يد و. هـ. س. جونز W.H.S. Jones أ . ت . ويتنجتون E.T. Withington (فى أربعة مجلدات ؟ مكتبة لويب للآداب القديمة ، ١٩٢٣ — ١٩٣١) ، التى سبق لنا أن أشرنا إليها .

وخلاصة القول أن ليس هنالك قانون أبقراطى ، بل جل ما عندنا مجموعات من المؤلفات تختلف مشتملاتها بين مخطوط وآخر ، وبين طبعة وسواها . وينبغى أن يناقش حظ هذه المؤلفات من الصحة على انفراد ، وليس من بينها ماهو موثوق به قطعاً ، بل كثير منها بلاريب منحول ، ودرجة صحة نسبتها إلى مؤلفها تختلف من الصفر إلى ما يقرب من مائة فى المائة .

وعندما عرضنا لرجال أمثال هيرودوت وثوكيديديس ممن لم يخلف أحدهم سوى كتاب واحد ، كان كل ما أوردناه من أحكام عامة منطبقاً ضرورة على ذلك الكتاب بالذات . أما فيما يتعلق بأبقراط فالأمر مختلف كل الاختلاف . إن الكتب المنسوبة إليه أو إلى مدرسته ، حقاً أو باطلا ، كثيرة جداً . وهذه الكتب تختلف من وجوه كثيرة بحيث يصبح لزاماً علينا أن نبحثها واحداً بعد الآخر ، وليس فى وسعنا أن نبحثها جميعاً لأن ذلك أمر يطول ، وغير ضرورى ، وسنبحث ثلاثين منها فقط ، وفى وسع القارئ الذى يتابعنى فى تحليلى الموجز أن يكون به لنفسه عن هذا المجموع الأبقراطى فكرة أصح مما قد يتيسر له عن طريق العرض الإجمالى .

ΑΠΑΝΤΑ ΤΑ ΤΟΥ ΙΠΠΟΚΡΑΤΟΥΣ.

OMNIA OPERA HIPPOCRATIS.

Ne quis alius impune, aut Venetiis, aut ullo quam lo-
corum hos Hippocratis libros imprimat, &
Clementis VII. Pont. Max. & Sena-
tus Veneti decreto cau-
tum est.

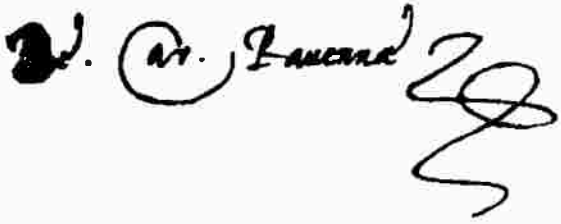

(الشكل ٧٠) – صفحة عنوان الكتاب فى صدر الجزء الأول من الأصل اليونانى لكتاب Omnia opera Hipporatis وهو يشتمل على النص اليونانى لتسعة وخمسين من المصنفات الأبقراطية غير مقرونة بالترجمة اللاتينية .

حرره فرانسيسكوس اسولانوس Franciscus Asulanus وطبعته مؤسسة ألدين الزاهرة لصاحبها الدوس واندرياس اسولانوس Aldo Manuzio-Andrea Torresani of Asola فى البندقية ١٥٢٦ .

وتبدأ هذه الطبعة الأنيقة ذات القطع الكبير folio volume برسالة موجهة من كليمان السابع (جوليو دى مديشى Guilio de' Medici البابا من ١٥٢٣ إلى ١٥٣٤) إلى أبناء اندريا الطورسانى وورثة الدومانوزيو (١٤٤٩ – ١٥١٥) (نقلا عن نسخة مكتبة كلية هارفرد) .

ΙΠΠΟΚΡΑΤΟΥΣ

ΚΩΟΥ ΙΑΤΡΟΥ ΠΑΛΑΙΟΤΑ-

ζυ, πάντων ἄλλων πρυφαίτ, βυ
ἕλία ἅπαντα.

HIPPOCRATIS COI MEDICI

VETVSTISSIMI, ET OMNIVM ALIORVM PRIN-

cipis, libri omnes, ad uetuſtos Codices ſummo
ſtudio collati & reſtaurati.

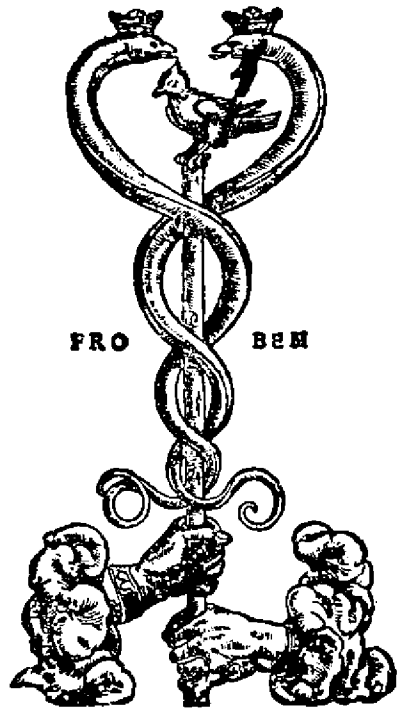

B A S I L E AE

M D XXXVIII

الشكل (٧) – صفحة العنوان فى صدر الطبعة اليونانية الثانية (على أوراق ذات قطع كبير) Folio لمصنفات أبقراط بعناية جانوس كورناريوس Janus Cornarius وقد طبعها فروبنيوس Frobenius فى بال ١٥٣٨ . ولقد كان الإنسانيون ببال فى مزاحمة دائمة مع منافسيهم من أعلام البندقية (نقلا عن نسخة مكتبة كلية هارفارد) .

ولا داعى لأن نعلق أهمية كبرى على السياق الذى نسلكه فى مناقشتها ، لأن السياق التاريخى وهو أقرب الأمور إلى طبيعة الأشياء متعذر . فإن بعض هذه المصنفات ، فى الراجح ، يسبق زمن أبقراط مثل كتاب De hebdomadibus (انظر حـ ١ ص٤٣٨) و Prorrhetic (Praedicta,) Coan prenotions ، ومشتملات « القسم » Oath . وسنلم بثلاثين مصنفاً موزعة بوجه عام على النحو التالى : ١ — ٦ ؛ المؤلفات الطبية الرئيسية ، ٧ — ١١ ، المؤلفات الجراحية ، ١٢ — ٢٠ ، المباحث والمؤلفات الفلسفية الطبية ، ٢١ — ٢٤ الحكم ، ٢٥ — ٢٩ الواجبات الطبية . ٣٠ الرسائل .

المؤلفات الطبية الرئيسية[١٩]

١ — كتاب « المرض المقدس » (الصرع)[٢٠] : De morbo sacro; Peri hieres nosu

ليس هذا الكتاب ، على أى وجه ، أشهر المصنفات الأبقراطية ، لكنه من أبرزها فى نظر مؤرخى علم الطب . ونسبته إلى أبقراط فى الراجح صحيحة ، ويرجع تاريخه بيقين إلى العهد الأبقراطى . و « المرض المقدس » هو الصرع (الانهيار العصبى) ، ولكن الكتاب يعالج أيضاً أنواعاً من النوبات العصبية والأمراض العقلية . يبدأ هذا الداء ، على ما يظن ، فى الدماغ ، والسبب المباشر لحدوث النوبة هو احتباس الهواء فى الأوعية الدموية بسبب بلغم يأتى من الرأس . والمظنون أن هذا التعليل مقتبس عن معاصر لأبقراط هو ديوجينيس الأبولونى Diogenes of Applonia . فالدماغ (وليس القلب أو الحجاب الحاجز) هو الذى اعتبر مركزاً للوعى الوجدانى ، وربما يكون هذا مأخوذاً عن الكمايون Alcmaion (القرن السادس ق. م.) ، وقد قبله أفلاطون ، ورفضه أرسطو (ورفضه هذا من أسوأ أخطائه) وتبعاً لذلك تطلب زمناً طويلا لكشفه مرة أخرى .

وأعجب ما فى هذا الكتاب رفضه الاسم الذى طالما أطلق على داء الصرع وهو « المرض المقدس » . إذ ليس ثمة ، فيما يدعى أبقراط[٢١] ، نوعان من

OECONOMIA

HIPPOCRATIS,

ALPHABETI SERIE DISTINCTA.

IN QVA DICTIONVM APVD HIPPOCRATEM omnium, præsertim obscurtorum, vsus explicatur, & velut ex amplißimo penu depromitur: ita vt LEXI-CON HIPPOCRATEVM *merito dici posßit.*

ANVTIO FOESIO MEDIOMATRICO
MEDICO, AVTHORE.

FRANCOFVRDI,
Apud Andreæ Wecheli heredes,
Claudium Marnium, & Io. Aubrium,
ANNO S. MDLXXXVIII.
Cum Priuilegio S. Cæsareæ Maiestatis.

الشكل ٧٢ – صفحة العنوان فى صدر دائرة المعارف والمعجم الأبقراطى . وضعه انيوس فويس من متز Anuce Foes of Metz (١٥٢٨ – ١٥٩٥) ، وهو أثر خالد من آثار المعارف الطبية اليونانية ، ولا يزال أداة صالحة لدرس الطب اليونانى (طبع على أوراق ذات قطع كبير ٣٣ سم ، ٧٠٠ ص بحرف صغير فى عمودين ، فرانكفورت ١٥٨٨) . وبالرغم من حجمه هذا فقد طبع ثانية فى جنيف ١٦٦٢ (نقلا عن نسخة مكتبة كلية هارفارد) .

OEUVRES

COMPLÈTES

D'HIPPOCRATE,

TRADUCTION NOUVELLE

AVEC LE TEXTE GREC EN REGARD,

COLLATIONNÉ SUR LES MANUSCRITS ET TOUTES LES ÉDITIONS;

ACCOMPAGNÉE D'UNE INTRODUCTION,

DE COMMENTAIRES MÉDICAUX, DE VARIANTES ET DE NOTES PHILOLOGIQUES;

Suivie d'une table générale des matières.

Par É. LITTRÉ.

Τοῖς τῶν παλαιῶν ἀνδρῶν
ὁμιλῆσαι γράμμασι.
GAL.

TOME PREMIER.

A PARIS,

CHEZ J. B. BAILLIERE,
LIBRAIRE DE L'ACADEMIE ROYALE DE MÉDECINE,
RUE DE L'ÉCOLE DE MÉDECINE, 17;

A LONDRES, CHEZ H. BAILLIÈRE, 219 REGENT-STREET

1839.

الشكل ٧٣ – صفحة العنوان فى صدر المجلد الأول من طبعة ليتريه اليونانية – الفرنسية للمصنفات الأبقراطية (عشرة مجلدات ، باريس ١٨٣٩ – ١٨٦١) (نقلا عن نسخة مكتبة كلية هارفارد) .

الأمراض : طبيعي ومقدس . أو إنساني وإلهي ، بل إن جميع الأمراض طبيعية ، وهي جميعها ، على اعتبارها ، إلهية . وها هي ذي عبارته الغريبة بنصها :

« هأنذا أبدأ ببحث المرض المعروف « بالمقدس » . وليس هو ، في رأيي ، أعرق في الألوهية أو القداسة من سواه من الأمراض ، بل له سبب طبيعي . وألوهية أصله المزعومة مردها إلى جهل الناس واستغرابهم لطبائعه الخاصة . وبينما يستمر الناس في الاعتقاد بأصله الإلهي لعجزهم عن إدراك خفاياه ، تراهم يفندون طابعه الإلهي باستخدام الوسائل المألوفة في معالجته وهي التي تعتمد ، فيما تعتمد ، على وسائل التطهر وأساليب الرقى والعزائم . وإذا كان الذي يوجب اعتباره إلهيًّا مجرد غرابة أمره ، لم يكن هنالك مرض إلهي واحد بل جملة أمراض . وهأنذا أوضح أن هنالك أمراضاً أخرى لا تقل عن هذا المرض غرابة وهولا ، ومع ذلك لم يعتبرها أحد مقدسة . مثال ذلك أن الحميات اليومية ، وحميات الثلث والربع ، ليست، فيما يبدو لي ، أقل قداسة من ذلك المرض ، ولا أبعد منه احتمالا عن أن تكون بقضاء إلهي . لكن أحداً لم يعجب لأمرها . ونجد بعض الناس في حال من البله والشرود لا نعرف لها سبباً ظاهراً ، ويأتون أموراً مستغربة ، فكثيرون منهم ، فيما أعلم ، يئنون ويصيحون ، وآخرون يشرقون ويختنقون ، وسواهم يثبون ويندفعون إلى الخارج وهم ساهون إلى أن يستعيدوا وعيهم . وعندها يعودون إلى ما كانوا عليه أولا من العافية والوعي ، لولا ما يعلو محياهم من صفرة ، وما ينتاب أجسامهم من إعياء . ويحدث لهم هذا مرات عديدة لا مرة واحدة . وفي استطاعتنا أن نورد على ذلك أمثلة عديدة مختلفة الأنواع ، ولكن الوقت يضيق بنا عن أن نتحدث عن كل منها على حدة .

« ويبدو لي أن الذين نسبوا في البداية إلى هذا المرض طابعاً قدسيًّا كانوا أشبه بالسحرة والمطهرين والمشعوذين والدجالين في أيامنا هذه — أولئك الذين يظهرون التقى البالغ ويدعون المعرفة الخارقة . وإذا أخذتهم الحيرة في شأن هذا المرض ، وعزّ لديهم العلاج الشافي تستروا بالخزعبلات وسموه « بالمرض المقدس »

كيلا يفتضح جهلهم المطبق[٢٢]»

أما العلم بأنسجة الأوعية الدموية فضعيف للغاية . ولئن كانت هنالك ملاحظات إكلينيكية صالحة فإن بيان الصرع غير واف بالغرض .ومع هذا ما أجدرنا أن نتسامح فى ذلك ، لأنا حتى الآن — على الرغم من كل ما ندعيه من التفوق فى أساليب البحث عن وصف موجات الدماغ الكهربية — (electroencephalography), لم نظفر بإيضاح « المرض المقدس » ، ولا نحن قادرون بعد على أن نشفى ضحاياه أو نمدهم بمساعدة مجدية .

قلما ينسى الإنسان انطباعاته الأولى ، وهذه الرسالة هى أول رسالة علمية يونانية قرأتها ، وقد أثرت فى روحها الحية تأثيراً عميقاً وأعدتنى لأكون مؤرخاً للعلم — قرأت هذا النص مع زملائى فى جامعة جنت Chent ، فى الطبعة (الجزئية) التى نشرها فيلاموفتز Wilamowitz فى كتابه Griechisches Lesebuch بإرشاد جوزيف بيدز Joseph Bidez وتوجيهه الحكيم[٢٣] .

٢ — كتاب الإنذار المرضى[٢٤] : Prognostic; Prognostica sive praenotiones; Prognosticon.

هذا الكتاب منسوب تقليدياً إلى أبقراط بلا مخالف . وقد وصف فيه نشوء الأمراض الحادة وتطورها لكى يتمكن الطبيب من أن يتكهن عن هذا التطور عند ابتدائه . واستمر هذا الكتاب متداولا حتى منتصف القرن السابع عشر ، وهو موجود فى عدد كبير من المخطوطات والطبعات فى لغات كثيرة .

ظهرت طبعات الترجمة اللاتينية لهذا الكتاب فى عهد بالغ القدم ، وذلك فى جملة الطبعات الست لكتاب Articella (١٤٧٦ إلى ١٥٠٠) ، ثم طبعه على حدة هنرى إتين Henri Estienne (باريس ١٥١٦) . ولست واثقاً من أن الطبعة اللاتينية — الألمانية لكتاب Prognostica Ypocratis cum aliis notatis (ميمنجن ١٤٩٦ ، كليبس ٥٢١) ليست هذا النص بالذات .

وقد جاء فى الفصل الأول منه :

« أعتقد أن من خير الأمور للطبيب أن يتمرن على التكهن . لأنه إن

اكتشف الشيء : ماضيه وحاضره وآتيه ، ثم أعلنه غير مستعين بمرضاه ، واستخدم ذلك فى سد الفجوات الباقية فيما يقرره المريض ، كانت ثقة الناس بإدراكه لحالات المرض أشد، فاطمأنوا إليه واستسلموا لمعالجته . ويصبح أوفر نجاحاً فى استئناف العلاج إن عرف مقدماً ، من ملاحظة الأعراض الحاضرة، ما الذى سيحدث بعد حين . وغنى عن البيان أن رد العافية إلى كل مريض أمر متعذر . ولو صح ذلك لكان بلاريب خيراً من استطلاع الغيب . والواقع أن الناس يموتون : بعضهم لاشتداد المرض بهم قبل استدعاء الطبيب، والبعض الآخر على أثر استدعائه — ولا تمتد حياته إلا يوماً أو أكثر — قبل أن يتمكن الطبيب من التذرع بعلمه لمقاومة المرض أيا كان نوعه فينبغى للطبيب والحالة هذه أن يعرف طبائع هذه الأمراض ، وإلى أى مدى تتجاوز قدرة الجسم البشرى على المقاومة . وأن يتعلم كيف يتكهن بها . وبهذه الطريق يتمكن من أن يحرز بحق كل احترام ، وأن يغدو طبيباً ماهراً . واعلم أنه على نسبة طول الوقت الموقوف لمعالجة حالة من الحالات المرضية تكون قدرتك على شفاء أولئك الذين يؤمل شفاؤهم . وفى الوقت نفسه يرتفع عنك اللوم متى علمت وأعلنت مقدماً عن المرضى الذين يخشى موتهم، وأولئك الذين يرجى امتثالهم للعافية .

أما العبارة الأخيرة فيبدو أنها أثبتت معارضة للأطباء الكنيديين وهى :

« لا تأسف لحذف أسماء بعض الأمراض من بيانى هذا . لأنك إنما تعلم أنواع الأمراض بالأعراض ذاتها فى جميع الحالات ، متى بلغت منتهى حدتها فى الأوقات التى عينتها .

٣ — كتاب التدبير الصحى فى الأمراض الحادة[٢٥] Regimen in acute diseases; De diaeta (or De ratione victus in acutis); Peri diaites oxeon nosematon.

إن صحة نسبة هذا البحث لم تكن يوماً موضعاً للشك . وهو شبه ملحق لكتاب الإنذار المرضى . والأمراض الحادة التى تناولها البحث، والتى تتميز بحرارة عالية هى العلل الصدرية والملاريا المتقطعة . وعلاجها الخاص خفيف للغاية ،

لكنه مقرون بنظام غذائى صارم (كما يبدو ذلك فى عنوان الكتاب) . فأبقراط يشير بالاقتصار على خبيص الشعير أو نقيعه ، والمنبهات الخفيفة ، والحمامات ، والتدليك ، وأنواع من الخمور ، وشراب العسل ، وهكذا . . . ولا يشير إلا بالقليل النادر من الأدوية[٢٦].

« إننى لأطرى شديد الإطراء ذلك الطبيب الذى يظهر تفوقاً ما ، لدى معالجة الأمراض الحادة التى تذهب بحياة الكثرة المطلقة من المصابين . والأمراض الحادة هى تلك التى أطلق عليها القدماء أسماء : ذات الجنب ، وذات الرئة ، والتهاب السحايا ، والحمى الخبيثة ، وما جرى مجراها من ذوات الحرارة التى يغلب فيها الاستمرار . ذلك لأنه إذا لم يكن هنالك وباء كاسح ، وقعت أمراض متفرقة ، ثم ظهرت أمراض حادة فإنها تسبب من الوفيات عدة أضعاف ما تسببه سائر الأمراض الأخرى مجتمعة[٢٧] » .

إن النص اللاتينى لهذا البحث موجود فى طبعات Articella القديمة ، وعددها ستة (قبل سنة ١٤٧٦ حتى ١٥٠٠ ، كلبس ١١٦) . وأول طبعة مستقلة للأصل اليونانى هى التى حققها هالر Haller (باريس ١٥٣٠) . وهنالك طبعات عديدة أخرى أكثرها باللاتينية .

ولقد عرف هذا المؤلف بأسماء أخرى منها : « نقيع الشعير »(De ptisana) نظراً للأهمية المعلقة على نقيع الشعير ، ومنها « تسفيه الأحكام الكنيدية » ، لما فى الفصول الثلاثة الأولى من نقد موجه إلى تعاليم الكنيديين .

٤ — **كتاب « المقدمات التمهيدية » الثانى**[٢٨] Prorrhetic II; Praedicta II

Prorrheticon b نذكر هذا الكتاب هنا مع أن قدماء النقاد أمثال أروتيانوس وجالينوس لم يعتبروه صحيح النسبة ، وظاهره كله يدل على أنه يعود إلى العهد الأبقراطى الباكر . نذكره لأنه من بعض الوجوه ، صالح للمقابلة بكتاب « التدبير الصحى فى الأمراض الحادة » ، ومن الجائز أن يطلق عليه عنوان « التدبير الصحى فى الأمراض المزمنة » .

ويختلف هذا الكتاب جداً عن كتاب « المقدمات التمهيدية » الأول الذى

هو مجموع مائة وسبعين حكمة طبية . أما « التمهيد الثانى » الذى نحن بصدده فيقسم إلى ثلاثة وأربعين فصلا بعضها طويل نوعاً . ويشتمل على عدد وافر من الملاحظات الطبية وتصريحين غريبين . فى الفصل الثالث نقرأ : « إن لمس الطبيب لبطن المريض وعروقه يجعله أبعد عن الانخداع منه لو لم يلمسهما » . وهذه ، ولا شك ، إشارة إلى النبضان . والأطباء الأبقراطيين لم يعرفوا كثيراً عن النبض ، وإن لاحظوه (وكيف يمكن أن يكونوا قد غفلوا عن ملاحظته ؟) . وفى الفصل السابع عشر إشارة إلى علقة كانت كامنة فى حلق أحدهم فاعتبرت مسببة للنزيف . ولم يستخدم الأطباء الأبقراطيون العلق ، وإن عرفوا الضرر الذى قد ينجم عنه عرضاً . وهذه ملاحظة صادقة فى بلد يكثر فيه هذا الحيوان[٢٩] .

٥ ــ كتابا الأوبئة الأول والثالث Epidemics I and III: Epidemiorum[٣٠] libri I et III; Epidemion biblia a', g'. إن هذا الكتاب لمن روائع المؤلفات العلمية اليونانية . وإن كان غير محكم الصياغة لأن مؤلفه لم يعن جديًّا بتهذيب عباراته . وهو جمهرة من « الأنظمة الصحية » ومجموعة خاصة من القصص الإكلينيكية . وتصف هذه « الأنظمة » ملابسات المناخ وأحوال المرض العامة فى مواضع معينة ، وتتعلق ثلاثة منها بجزيرة تاسوس Thasos . تلك التى لا مفر لنا من افتراض أن المؤلف (أبقراط) ؟ كان يعرفها جيداً . أما الحوادث الإكلينيكية فعددها اثنتان وأربعون ، انتهت خمس وعشرون منها بالوفاة .

وتتميز هذه الملاحظات الطبية بطابع علمى ولهجة رصينة تثير الإعجاب وهاك بضعة نماذج منها :

كتاب الأوبئة الأول ــ النظام الأول: Epidemics I . وهو وصف لوباء التهاب الغدد النكفية (أبو كعيب) . والطريف فى هذا الوصف أنه يعتبر التهاب الخصية أحد المضاعفات التى قد تتخلف عن التهاب الغدد النكفية (التكعيب) . (Orchitis parotidea)

فى جزيرة تاسوس . أثناء فصل الخريف ، وحوالى الزمن الذى يقرب

فيه الاعتدال الشمسى من غروب الثريا ، يسقط مطر كثير خفيف . متواصل ترافقه رياح تهب من الجنوب . وفى فصل الشتاء تهب رياح من الجنوب ، والرياح الشمالية خفيفة مع شيء من الجفاف ، والشتاء بوجه العموم أشبه بفصل الربيع . والربيع كذلك ذو رياح جنوبية قارسة والمطر ينهمر فى دفعات خفيفة . أما الصيف فغائم بوجه الإجمال ، وهو خال من المطر ، رياحه الموسمية قليلة . وخفيفة غير منتظمة .

فالطقس على العموم جنوبى تتخلله موجات من الجفاف . والأمر بالعكس فى أوائل الربيع كما اتضح من « النظام » السابق ، فهو شمالى المناخ ، وقليلون من المرضى هم الذين شكوا من حميات حادة ، بل كانت حرارتهم خفيفة جداً . بحيث أدت فى حالات قليلة إلى نزيف ، ودون وفاة . وكثيرون منهم أصيبوا بتورم بجانب الأذن أو الأذنين . ولم يصاحب ذلك ، فى الغالب ارتفاع فى الحرارة ، فلم يكن بهم حاجة إلى ملازمة الفراش . اقترنت بعض الحالات بشيء من الحرارة الخفيفة ، وزال الورم فيها جميعاً دون أن يسبب ضرراً ما . ولم يصاحب هذه الحالات ما يصاحب الأورام عادة من التقيح . وتمتاز هذه الأورام بأنها مسترخية ، كبيرة منتشرة ، لا يصحبها التهاب ولا ألم ، واختفت فى جميع الحالات دون أن تترك أثراً . وكان المصابون أحداثاً وشباناً ورجالا فى مقتبل العمر . ومعظمهم من أولئك الذين ترددوا على مدرسة المصارعة ، وزاولوا الألعاب الجمنازية . ولم يصب بذلك من النساء إلا عدد قليل . وأصيب كثير من المرضى بسعال جاف . لا بلغم فيه ، وإنما يخشن الصوت . ويترتب على ذلك أحياناً التهاب مؤلم فى خصية واحدة ، أو فى الاثنتين ، ومصحوب بحرارة فى بعض الأحوال ، وقد يؤدى إلى أوجاع شديدة ، وفيما عدا ذلك ليس ثمة ما يستدعى الإسعاف الطبى .

كتاب الأوبئة الأول — خاتمة النظام الثانى

إن الآلام التى تحدث حول الرأس والعنق ، والثقل المصحوب بالألم قد يقترن بارتفاع درجة الحرارة . والمصابون بالتهاب سحائى (phrenitis) يحدث

لهم تشنج ينفثون معه قيئاً جنزارى اللون ، ويموت بعضهم فى الحال . وفى الحمى الحادة والحميات الأخرى ، يصاب بنزيف من الأنف من يعانون ألماً فى العنق وثقلا فى الصدغين وقصراً فى البصر وتوتراً غير مؤلم فى منطقتى الشراسيف اليمنى واليسرى ، ومن يشكون من ثقل عام فى الرأس ، وحرقة فى القلب ، وجيشان فى النفس يتقيأون بعد ذلك الصفراء والبلغم . ويغلب على الأولاد أن يصابوا ، فى مثل هذه الحالات ، بالتشنج ، فى حين تصاب النساء بهذين العرضين وبآلام فى الرحم . والمسنون ، الذين أخذت حرارتهم الطبيعية فى الجمود ، يصابون بالشلل أو البله أو العمى[٣١] . ويختم المؤلف كتاب الأوبئة الأول بإيراد أربع عشرة حالة إكلينيكية نثبت منها هنا الحالة الثانية فى تفصيل :

كان سيلنوس (Silenus) يقيم فى الشارع العريض بجوار يوالسيداس (Eualcidas) ، وقد أصيب بحمى على أثر الإجهاد وإدمان الشرب وممارسة الرياضة فى غير الوقت الملائم . بدأ يشعر أولا بألم فى الخاصرة مصحوب بثقل فى الرأس وصلابة فى العنق . وفى اليوم الأول ألقت الأمعاء بمقدار وافر من الصفراء الخالية من العناصر الغريبة فاقعة اللون وافرة الزبد ، والبول أسود ، فيه رواسب سوداء ، ويصحب ذلك عطش وجفاف فى اللسان ، وسهاد فى الليل .

اليوم الثانى : الحمى حادة والغائط أوفر مقداراً وأقل كثافة وفيه مخاط وزبد ، والبول أسود ، والليلة مزعجة يتخللها شرود طفيف .

اليوم الثالث : هياج عام ، انكماش مستطيل فى منطقة الشراسيف ، ارتخاء فيما دون ذلك ممتد على الجانبين حتى السرة ، الغائط مائع وقاتم ، البول معتكر وقاتم ، سهاد فى الليل ، شرود كثير ، ضحك وغناء ، عجز عن ضبط النفس .

اليوم الرابع : الأعراض نفسها .

اليوم الخامس : الغائط خال من العناصر الغريبة ، صفراوى أملس ودبق كالدهن . البول رقيق شفاف ، فترات من الوعى .

اليوم السادس : عرق طفيف حول الرأس ؛ الأطراف باردة ولونها ضارب إلى الزرقة ، تقلب كثير ؛ الأمعاء لم تفرز شيئاً ، البول محتبس ، الحمى حادة .

اليوم السابع : انقطاع عن الكلام ، الأطراف لا يعود إليها الدفء : البول لا يجرى .

اليوم الثامن : عرق بارد يجلل الرأس ، بقع حمراء يعلوها العرق ، وهى صغيرة مستديرة كأنها حب الصبا ، استمرار ظهورها دون أن تخمد ، تفرز الأمعاء ، على أثر ملين خفيف ، مقداراً كبيراً من غائط صلب رقيق غير مهضوم مصحوب بالألم . البول مؤلم ومهيج ، الأطراف تستعيد شيئاً من الدفء ، النوم متقطع ، غياب عن الوعى ، انقطاع عن الكلام ، البول رقيق شفاف .

اليوم التاسع : الأعراض نفسها .

اليوم العاشر : توقف عن الشرب ، غيبوبة ، نوم متقطع ، الغائط كما هو ، دفعة غزيرة من بول كثيف ترك بعد الاستقرار راسباً طحينياً أبيض . تعود الأطراف فتبرد .

اليوم الحادى عشر : الوفاة .

كانت حركة التنفس فى هذه الحال ، من أول الأمر ، بطيئة والتنفس عميقاً ، وكان النبض فى منطقة الشراسيف متواصلا . وعمر المريض حوالى عشرين سنة .

كتاب الأوبئة الأول — الحال السادسة .

كان كليناكتيدس (Cleanactides) طريح الفراش فوق معبد هيراكليس Heracles ، وداهمته حرارة غير منتظمة . شعر أولا بآلام فى الرأس والجانب الأيسر ، وأحس فى سائر جسمه بألم شبيه بالألم الذى يسببه العياء الشديد . ولم تكن وطأة الحرارة بنسبة واحدة . ولا مستمرة على نحو منتظم . ويصحبها العرق فى أوقات دون أخرى . وهذه الوطأة فى الغالب على أشدها فى أيام المرض الحرجة .

حوالى اليوم الرابع والعشرين : ألم فى اليدين ، نوبات متكررة متقاربة من القىء الصفراوى الذى لا يلبث أن يتحول إلى جنزارى ، انتعاش عام .

حوالى اليوم الثلاثين . بدأ رعاف من كلا المنخرين ، واستمر ضعيفاً

متقطعاً حتى بلغت أزمة المرض أوج حدتها. لم يعان المريض فى هذه الأثناء عطشاً، ولا شكا من فقدان الشهية ولا من قلة النوم . البول رقيق وغير خال من لون ما .

حوالى اليوم الأربعين : البول ضارب إلى الحمرة مصحوب براسب وافر أحمر . تحسن فى حالة المريض . ثم تبدل فى حالة البول فيظهر فيه أحياناً شيء من الرواسب .

اليوم الستون : ترك البول مقداراً كبيراً من الرواسب البيضاء الناعمة ، تحسن عام ، الحرارة متقطعة ، البول يعود رقيقاً لكن لونه مرض .

اليوم السبعون : تعود الحرارة بعد أن توقفت عشرة أيام .

اليوم الثمانون : دور برد ، نوبة حمى حادة ، عرق غزير ، راسب فى البول أحمر . ناعم . أزمة خطيرة . . .

كتاب الأوبئة الأول : الحال الحادية عشرة .

وضعت زوجة دروميادس Dromeades ، طفلة ، وجرت الأمور فى مجراها الطبيعى ، ثم أصيبت ببرد وحمى حادة . وبدأت تشعر فى اليوم الأول بألم فى منطقة الشراسيف وأحست بغثيان فى النفس وأخذتها الرجفة واستولى عليها الاضطراب . وفى الأيام التالية امتنع عليها النوم ، حركة التنفس بطيئة ، والنفس عميق يتوقف فجأة كأنما يعترضه شهيق .

اليوم الثانى منذ بدء البرودة . تقوم الأمعاء بوظيفتها خير قيام ، البول كثيف أبيض معتكر ، شبيه بالبول الذى حرك بعد أن ترك يستقر ويترسب مدة طويلة ، فلم يرسب ، امتناع النوم ليلا .

اليوم الثالث : دور برد حوالى الظهر ، حمى حادة ، البول كما كان ، ألم فى منطقة الشراسيف ، غثيان ، ليلة قلقة بلا نوم ، عرق بارد يجلل الجسم ، ثم لم تلبث المريضة أن استعادت الدفء .

اليوم الرابع : تلطف الألم حول الشراسيف ، ثقل مؤلم فى الرأس ، شرود طفيف ، رعاف قليل ، جفاف فى اللسان وعطش ، البول شحيح رقيق ذو مادة زيتية ، النوم غفلات متباعدة .

اليوم الخامس : عطش ورعاف . البول كما كان سابقاً . الأمعاء لم تقذف بشيء ، حوالى منتصف النهار هذيان كثير تلاه على الأثر فترات من الوعى . نهضت ثم عاودها شيء من الشرود . دور برد طفيف ، استسلمت للرقاد ليلا عاودها الهذيان .

اليوم السادس : أصابها فى الصباح دور برد ، ولكن سرعان ما استرجعت حرارتها . جلل العرق جسمها . برودة فى الأطراف ، نوبة هذيان . التنفس عميق وبطىء . وبعد فترة أصيبت بتشنج ابتدأ من الرأس ، وجاءت الوفاة على الأثر .

بيّن أن هذا الكتاب لم يكن معداً للنشر وإننا لنشك فى أنه وضع أصلا من أجل أن ينشر . أو من أجل أن يعتمد خارج المدرسة الطبية . من المحتمل أن يكون أبقراط وضعه لاستعماله الخاص ؛ اللهم إلا أن هذه العناية فى التأليف تجاوز هذا الغرض .

أما نظريته فى الأمزجة فقد ألمع إليها فى كتاب الأوبئة الثالث . قال :

إن الصفات الجسمية التى تميز المصابين بالسل هى : نعومة الجلد ولونه العدسى الضارب إلى البياض ، والمشوب بالحمرة ، ثم بريق فى العينين وتبلد فى الحال العامة . بروز فى لوحتى الكتفين حتى لكأنهما جانحان . وكذلك شأن النساء فى ذلك كله . أما أصحاب الطبع الحزين وذوو المزاج الدموى فقد أصيبوا بحمى شديدة والتهاب سحائى ومتاعب زحارية ، ويضر التعنى من هم فى مقتبل العمر من ذوى المزاج اللمفاوى ، ويضر الزحار المزمن والغائط الصلب الدهنى اللزج أرباب المزاج الصفراوى[٣٢] » .

كتب الأوبئة الثانى والرابع إلى السابع : Epidemics II, IV-VII; Epidemiorum libri II, IV, V, VI VII; Epidemion biblia b', d'-z'.

عمدنا إلى فصل هذه الكتب الخمسة من مؤلف الأوبئة عن الكتابين

السابقين (الأول والثالث) تمشياً مع التقليد القديم ، الذى يرى أنها لاتنعم بالأصالة مثلما ينعمان . فقد نسب القدامى الكتابين الأول والثالث إلى أبقراط نفسه ، فى حين ردوا سائر الكتب الأخرى إلى أبقراطيين آخرين . ونسبت الكتب الثانى والسادس والرابع (؟) غير مرة إلى تسالوس Thessalos بن أبقراط ، وشرح الكتاب السادس جلوكياس التارنتى (Glaucias of Tarentum) (النصف الأول من القرن الأول ق.م.) ، وهو أحد قدماء الأطباء .

وهذه الكتب الخمسة التى نحن بصددها تشبه الكتابين السابقين فى أمر رئيسى . وهو أنها جميعها مجموعات من الوقائع الإكلينيكية والملاحظات الطبية . جاءت فى مراتب متفاوتة من حيث تهذيب العبارة وأناقة الإخراج . فالكتابان الأول والثالث أقرب إلى الإتقان . والخامس والسابع أقل إتقاناً ، والثانى والرابع والسادس أبعد ما يكون عن ذلك ؛ وإن كان الغرض العام فيها جميعها واحداً .

وخمستها حشد من ملاحظات إكلينيكية متعددة الأنواع . بعضها محكم التعبير (وهو حيث بلغ الذروة شبيه بأوصاف الوقائع الواردة فى الكتابين الأول والثالث) . وبعضها الآخر مدون على عجل . ومنها ما دون بعد مشاهدات قليلة قبل أن يراقب استمرار المرض وتعرف نهايته . ومنها ما هو ركيك التركيب غامض المدلول . أو مبهم إبهاماً كلياً . وفى وسع الطبيب المعاصر أن يميز بعضها (كما صنع ليتريه) . وبعضها الآخر شديد الخفاء .

وشعورى الشخصى أن هذه الملاحظات وثائق خلفها طبيب أو أكثر ، وكانت مدونة على قطع منثورة من أوراق البردى . وضم بعضها إلى بعض فى مجموعة واحدة منذ زمن مدخل فى القدم . ثم نشرت على هذا النحو — إذا جاز إطلاق « النشر » على هذا الضرب من العمل المشوش . وفى رأيى أن ذلك تم فى عهد متأخر نسبياً (فى القرن الثالث مثلا) . فى الوقت الذى أحرزت فيه المدرسة الأبقراطية شهرة واسعة .

ولقد بلغ من احترام الناشر لهذه الشذرات أن تحرج من إدخال أى تعديل

عليها ، فأقدم على نشرها كما هى تماماً . ولعله أصاب فى هذا ، وإن كان قد أخطأ فى تركها مشوشة والإبقاء على هفوات فاضحة. مثل إقحام الكتاب السادس بين الخامس والسابع . مع أن التساوق الموضوعى بينهما واضح المعالم .

ومن الخير أن يكون قد قدر لهذه الملاحظات البدائية أن تتحدر إلينا . لأن دراستها تتيح لنا أن نستعيد حياة الأطباء الأبقراطيين وجميع اختباراتهم . فنرقبهم وهم يقومون بأعمالهم ؛ وتسنح لنا لمحات من تأملاتهم . وإننا لنصادف فى كتاب الأوبئة الخامس أمثلة عديدة على إصلاح الخطأ الشخصى ، فنجد الطبيب يقرر أن حكمه السابق بشأن حال مرضية كان خاطئاً . وأن العلاج الذى عول عليه كان فى غير محله[٣٣] .

وفى كتاب الأوبئة الرابع يصف الطبيب فى الحادثة السادسة حال إجهاض . ثم يزيد متسائلا : ترى ، هل قالت المرأة الصدق ؟ لست أدرى !

وردت فى هذا الصدد أسماء ثلاثة من الأطباء : هيروديكوس[٣٤] Herodicos الذى عيبت عليه أساليبه ، وبيثوكليس[٣٥] Pythocles الذى أعطى مرضاه حليباً مخففاً بكثير من الماء ، والمستشار منيسيماخوس[٣٦] Mnesimachos ؛ وهناك إشارات أخرى كثيرة إلى أطباء لم تذكر أسماؤهم .

ومظهر المصادفة فى تجميع هذه الحوادث يبين بوضوح فى تكرارها الزائد ، لا سيما فى مجموعات من الكتاب الثانى والرابع والسادس ، والخامس والسابع . ويظهر أن بعض الملاحظات كتبت غير مرة ، ووردت بالتالى مكررة فى قطع متعددة من ورق البردى . حتى إذا عمد الناسخ إلى جمع هذه القطع فى طومار واحد أثبت كل قطعة حيث وردت ولم ينتبه إلى التكرار ، أو لم يحفل به .

لم يقف التكرار عند هذا المجموع وحده ، بل امتد إلى مؤلفات أبقراطية أخرى كثيرة . وقد أشار ليتريه بدقته المعهودة إلى جميع الشذرات التى تطابق . أو تشابه كثيراً . فقرات يصادفها القارئ فى كتاب « الحكم الطبية » . و« كتاب المقدمات التمهيدية » الأول و « الإنذار المرضى » ، و « الأهوية والأمواه والأماكن » ، و « التدبير الصحى فى الأمراض الحادة » ، « وعيادة

الطبيب » . . . إلخ . وهذه الظاهرة مفيدة للغاية ، إذ تدل على أن جانباً من مجموع المؤلفات الأبقراطية كان يسهل الرجوع إليه عندما دون الأطباء هذه الملاحظات الإكلينيكية . أو أن الأطباء الذين دونوها هم الذين وضعوا بعض المؤلفات الأبقراطية الأخرى . وبعبارة أخرى يساعدنا « كتاب الأوبئة » على أن نتثبت من صحة قسم وافر من مجموع المصنفات الأبقراطية . وقد أوضح ليتريه هذا الأمر غاية الإيضاح فى الهوامش التى أثبتها ، وفى مقدمته لهذا الكتاب عامة أو لكل جزء من أجزائه الخاصة . وقد أورد دايشجريبر[٣٧] Deichgraber حجج ليتريه بتفصيل أوفى ، وأقره فى تصنيفه ، وأقدم على تعيين تاريخ لكل مجموعة . وفى رأيه أنه يستطاع تحديد تواريخ المجموعات بحسب السياق التالى : الكتابان الأول والثالث حوالى سنة ٤١٠ . الثانى والرابع والسادس حوالى ٣٩٥ — ٣٩٩ . والخامس والسابع حوالى ٣٦٠ .

ولا حاجة بنا إلى مناقشة هذا التحديد الدقيق . لأنه ينطوى على كثير من الجرأة ، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار سوء التنسيق وعدم تجانس المواد فى تلك الكتب . وحسبنا أن نسلم بالنتيجة العامة وهى أن « كتاب الأوبئة » يمثل جملة التجارب الطبية التى توصلت إليها فئة معينة من الأطباء هم أعلام المدرسة الكوسية ، وذلك فى مدى قصير نسبياً هو نحو نصف قرن .

وقد ساعد دايشجريبر فى مهمته أنه باشر عمله بعد ليتريه بما يقرب من قرن . وعاقه أنه كان أقل كفاية منه فى مواجهة الواقع . وأنه كان فى اختصار لغوياً لا طبيباً .

ولكى تتهيأ لنا مناقشة معالم الطب الأبقراطى على اختلافها مناقشة أوفى . يجدر بنا أن نعد طبعة جديدة « لكتاب الأوبئة » . منسقة قدر الإمكان على أساس الموضوع . وبما أن النص الذى بين يدينا لا تنسيق فيه . فمن حقنا أن نغفل ترتيبه الاعتباطى الذى استقر على هذه الصورة . وأن نفترض أن المجموع الأصلى لقطع البردى أعيد إلينا فى حالته المشوشة الأولى . ثم نأخذ فى إعادة تحريره . هذه المرة . بوعى وتعقل . فنبدأ بتبويب الشذرات على خير وجه

ممكن جامعين القطع التى يتصل بعضها ببعض ، كأن نجمع كل ما يتصل بالوباء الغريب الذى انتشر فى پيرنتوس[٣٨] Perinthos فى فصل الشتاء من سنة لم تذكر على وجه التعيين[٣٩] : سعال مع أدواء كثيرة أخرى كالسعال المقرون بالذبحة الصدرية أو بالغشاوة « العمى الليلى » أو بشلل بعض الأعضاء ، واتخذ هذا المرض مظاهر مختلفة تبعاً لحرفة المريض وظروف حياته . فالبائعون المنادون والمغنون المتجولون فى المدن مثلا أصيبوا بالذبحة الصدرية ، بينما أصيب العمال الذين يستخدمون أيديهم بألم فى أيديهم وهلم جرا . قابل هذا القول بالعبارة الواردة فى كتاب الحكم الطبية : « إذا سبق لجانب من الجسم قبل حلول هذا المرض أن أصيب بعلة ما . ففى هذا الجانب يستقر المرض[٤٠] » . وهذا المنهج الذى اقترحه لإعادة تحرير الكتاب يسوغ اعتماده فى أقسام أخرى من مجموع النصوص ، على ألا يتم ذلك على يد لغوى مباه بعلمه ، بل يضطلع به طبيب مجرب أخذ فى الوقت نفسه من الثقافة اليونانية بحظ ما . ووعى شئون النشر العلمى ، مثل ليتريه أو بتريكين Petrequin . وينبغى أن نذكر دائماً أن مواجهة الواقع لا تحصل من الكتب ، وإنما من ممارسة المهن العلمية .

إن كثيراً من الملاحظات المدونة فى « كتاب الأوبئة » فريد فى بابه ، ومع هذا تحمل كل دلالة على صحة نسبتها . وفيما يلى واحدة منها . وقد تكون أغربها على الإطلاق :

كانت فايتوسا Phaitusa ، فى أبديرا Abdera ، مديرة للشئون المنزلية فى بيت بيتياس Pytheas ؛ ورزقت أولاداً . ولكن زوجها هجرها فتوقف حيضها مدة طويلة ، ثم أصابها ألم فى المفاصل . وظهرت فى مواضع الألم بقع حمراء . وفى هذه الحال بدأ جسمها يتخذ مظاهر أجسام الرجال : فجلله الشعر ، ونبتت لحيتها وخشن صوتها . ولم يعد إليها حيضها بالرغم من كل ما بذل فى سبيل ذلك من جهد ، بل أدركتها الوفاة بعد وقت غير طويل . وجرى مثل ذلك لنانو Nanno زوجة جورجيبوس Gorgippos فى تاسوس . واتفقت آراء الأطباء الذين حدثتهم فى الموضوع على أن الأمل الوحيد لإرجاع طبيعتها النسائية

إليها إنما هو فى أن يعود الحيض إلى مجراه الطبيعى . لكن جهودهم فى هذا السبيل ضاعت أيضاً وماتت المرأة على الأثر[٤١] .

هذه الحادثة على غرابتها مثال صالح من القصص الطبية المروية فى كتاب الأوبئة (وفيه نحو ٥٦٧ قصة[٤٢]) . وبعضها أطول جداً مما أوردناه، وكثير منها أقصر جداً حتى لتغدو مجرد قول مأثور . والأسلوب طبي علمى خالص ، خال من الحشو والكلام الهراء .

المؤلفات الجراحية :

إن المؤلفات الجراحية تكاد تكون ، بالنسبة إلى نظام الطب الأبقراطى ، فى منزلة المصنفات الطبية التى فرغنا الآن من مناقشتها ، إلا أن طابعها الفنى الصارم يجعلها أبعد تناولا عن القارئ العادى ، ولذلك لا نستطيع أن نخصها ببحث مستفيض . وفى وسع القارئ الفطن أن يدرك معالم الرشد فى الطب الأبقراطى كما تتجلى فى كتاب « التدبير الصحى فى الأمراض الحادة » ، والجرّاح وحده هو الذى يتمكن من استيعاب دقائق الأمور فى الجراحة الأبقراطية . أما باقى القراء فلا يسعفهم الشرح ، مهما طال ، فى إصدار حكم عادل بشأنها .

والبحوث الجراحية ، مع كل ما تتميز به من تفوق نسبي ، أقل إثارة للإعجاب من بعض البحوث الطبية الأخرى ، فنحن نعلم أن اليونان مارسوا حرفة الجراحة فى عهد موغل فى القدم (بصرف النظر عن التراث الذى خلفه المصريون فى هذا الباب قبل ذلك بقرون عديدة) ، وكشفت قصائد هوميروس عن كثير من المعلومات الجراحية . ومن الممتع جداً أن نقابل هذه القصائد بروايات الفروسية فى العصور الوسطى « حيث لا تقع الجروح تحت حصر ، ولا يقف العنف عند حد ، وحيث يكاد يكون الوضوح وكل اهتمام بشئون الجراحة مفقود المعالم[٤٣] » . أما الإلياذة فقد ورد فيها وصف لنحو من ١٤٧ جرحاً ، وجاء هذا الوصف من الوضوح بحيث يستطيع الجراح أن يميز بينها تمييزاً صحيحاً . وجمع اليونان الكثير من الاختبارات الجراحية ، لا من حوادث

الحروب وحدها ، بل مما وقع لهم أيضاً فى أثناء التمارين الجمنازية والألعاب الرياضية . مثال ذلك أن الكتف كثيراً ما كانت تخلع من مكانها فى المصارعة ؛ وعلى الجراح البارع أن يعرف جميع الطرق التى تمكنه من إرجاعها إلى موضعها . ولم تكن المعلومات الجراحية مقتصرة على جبر العظم المكسور وإرجاع المفاصل المخلوعة ، بل اشتملت فوق ذلك ، على أنواع من التضميد ، ووضع الجبائر ، وضم المفاصل ، وممارسة التدليك ، واستخدام الدهون . وقام الجراحون الأبقراطيون بكل ما مكنتهم الوسائل المتاحة لهم فى ذلك الحين من أن يقوموا به ؛ لكنهم لم يعرفوا — بطبيعة الحال — من وسائل التطهير والتخدير إلا ما هو بدائى للغاية . وذاعت شهرة الجراحين اليونان فى الخارج حتى بلغت بلاد فارس قبل نهاية القرن السادس. تشهد على ذلك حكاية ديموكسيديس الكروتونى Democedes of Croton الذى استدعى إلى بلاط دارا Darios (ج ١ — ٤٣٨ص) فالبحوث الأبقراطية تحل إذن من التراث الطبى الضخم فى أعلى قمة .

أخرج الجراح الفرنسى جوزيف الينور بتركين Joseph Eleonore Petrequin (١٨١٠ — ١٨٧٦) طبعة يونانية فرنسية شائقة للمؤلفات الجراحية وقف عليها أوقات راحته خلال ثلاثين سنة ؛ وأسماها جراحة أبقراط Chirurgie d'Hippocrate (مجلدان ١٢٢٢ ص ، باريس ، المطبعة الوطنية ١٨٧٧ — ١٨٧٨) ويشتمل المجلدان على تعليقات دقيقة للغاية . والمقدمات الطويلة التى صدرت بها بحوث المجلد الأول مفقودة فى المجلد الثانى ؛ لأنه حال دون تحقيقها موت المؤلف ، وأتم هذا المجلد إميل جوليان Emile Jullien .

٧ — الجروح فى الراس[٤٤] : De capitis vulneribus; Peri ton en cephale: tromaton إن هذا البحث لمن أروع البحوث الأبقراطية . يعود تاريخه ، فى غالب الظن ، إلى أواخر القرن الخامس ، وينسب إجمالا إلى أبقراط بالذات . ويشتمل على أوصاف لأنواع الجماجم المختلفة (المتباينة باعتبار تضاريسها العظمية) . ولنظرية الكسر بالصدمة المعاكسة contrecoup . وفيه أيضاً منهج

حديث فى كيفية ثقب الجمجمة بالتربنة ، ومناقشة للحالات التى يشار فيها بإجراء هذه الجراحة العظمية ، وتلك التى يفضل فيها الامتناع عن ذلك .

٨ — فى الجراحة[٤٥] De officina medici; Cat' ietreion.

وهو مجموعة ملاحظات تعالج خاصة فن التضميد ، فتوضح كيف ينبغى للجراح أن يتصرف ، وأى الأدوات يستخدم وما إلى ذلك . وجملة هذه الملاحظات أشبه ما تكون بكراسة أعدها أستاذ أو دونها أحد الطلاب ، وفيها تكرار كثير ، ولكن التعليم الصالح يستتبع ترويض الطلاب بالتكرار . والشواهد التالية أبلغ فى إعطاء فكرة عن الكتاب من كل وصف .

٢ — مستلزمات العمليات الجراحية ، المريض ، الجراح ، مساعدون ، أدوات ، النور ، مكانه وموقعه ، ، أى الأدوات يستخدم ، كيف ومتى ، شخص (المريض ؟) والجهاز ، والزمان والكيفية والمكان .

٣ — ينبغى للجراح ، واقفاً كان أو جالساً ، أن يتخير وضعاً مريحاً بالنسبة إليه وبالنسبة إلى ذلك الجزء من الجسم الذى يجرى فيه العملية ، وبالنسبة إلى النور .

وهنالك نوعان من النور : طبيعى وصناعى . ولئن كان الأول خارجاً عن سلطتنا فإن الثانى خاضع لها . واستخدام كل منهما ممكن على أحد وجهين : عمودياً أو منحرفاً . والمنحرف لا يحتاج إليه إلا قليلا ، والمقدار اللازم منه واضح . أما العمودى فإذا تيسر وكان مفيداً فينبغى أن يوجه الجزء الذى تجرى فيه العملية نحو البقعة المشرقة فيه ، هذا ما عدا الأعضاء التى ينبغى ألا تكشف ، والتى لا يحسن النظر إليها — وبذلك يغدو الموضع الذى تجرى فيه العملية مواجهاً للنور ، ويصبح الجراح مواجهاً للموضع الذى ينجز فيه مهمته ، بحيث لا يقع عليه ظله . لأنه يستطيع بهذا أن يبصر الموضع جيداً دون أن يعرضه للنظر .

٤ — ينبغى ألا تمتد الأظافر إلى أبعد من أطراف الأنامل ، ولا أن تقصر عنها . تمرنْ على استخدام الأنامل لا سيما السبابة وهى فى مقابل الإبهام ، وذلك

فى وضع تكون فيه اليدان متقابلتين ومتجهتين إلى أدنى . أما الشكل الصالح للأصابع : فأن تكون الفرجات بينها واسعة . والإبهام فى مقابل السبابة . وهذا لك خلل ضار بحكم الطبع أو بحكم العادة . عند الذين يجعلون الإبهام تحت سائر الأصابع . مارس جميع العمليات وأنجزها بكل يد على حدة وباليدين معاً — لأن الواحدة منهما كالأخرى — وكل غرضك إحراز القدرة واللباقة والسرعة والرشاقة وعدم الإيلام . ثم الاستعداد الدائم للعمل .

٦ — اطلب إلى الذين يعنون بأمر المريض أن يجعلوا موضع إجراء العملية فى الوضع الذى تريد . وأن يمسكوا سائر الجسم بحيث يغدو ثابتاً ويلزموا السكوت ويتقيدوا بالطاعة لرئيسهم .

هذا البحث الموجز أبقراطى لا ريب فيه . وهو قديم نسبياً . وقد ورد اسم تساوس ابن أبقراط على أنه واضعه . ومهما يكن من صحة نسبته فإن تأثير المعلم العظيم المبدع بارز فى تضاعيفه .

٩ — ١١ الكسور . والمفاصل ، وأدوات الجبر (٤٦) De fractis, De articulis reponendis Vectiarius; Peri arthron agmon, Periarthron, Mochlicon.

يمكن أن تعالج هذه البحوث الثلاثة مجتمعة . والأول والثانى وهما ، على القطع ، من وضع طبيب واحد ، كانا فى وقت ما مؤلفاً واحداً . والثالث خلاصة للفصول التى تعالج خلع المفاصل فى البحثين الأولين . وقد غلب عليها جميعها الطابع الفنى ، فغدت من ثم بعيدة المنال بالنسبة إلى القارئ العادى .

إن بحثى الكسور والمفاصل ، لم يكونا يوماً موضعاً للشك . وقد جعلهما جالينوس فى المجموع الأول من المؤلفات الأبقراطية وهو أوثقها . والغريب أن أحد الشراح القدماء لم ينسبهما إلى أبقراط نفسه، بل إلى جده أبقراط ابن نوسيديكوس (٤٧) . وهذا يؤيد الرأى القائل بأن المؤلفات الجراحية قديمة العهد . والفضل فى وضعها لا يعود إلى أبقراط . وجل ما صنعه أنه أكسبها صبغة قياسية (هذا إن لم يكن جده هو صاحب هذا الفضل) . والفاصل بين مؤلفى « الكسور » و « المفاصل » غير واضح . فإن الأول يشتمل على مادة وافرة (نحو

الربع) عن انخلاع المفاصل . بينما يتضمن الثانى عدة فصول عن الكسور : ومما يدعو إلى الغرابة أن كلا البحثين يشتمل على رسائل بليغة لا نظير لها فى أحسن المؤلفات الأبقراطية . وربما كان مرد هذا إلى عناية أحد الطلاب المتفقهين فى اللغة ودقته فى النشر .

وفى الفصل التاسع من بحث المفاصل يعالج المؤلف موضوع التدليك فى الحالات الجراحية ، ويعلن عن عزمه على وضع كتاب خاص فى ذلك . لكن هذا الكتاب لم يؤلف ، ولا نعثر على إشارة إليه إلا فى الرسالة المذكورة[٤٨].

وقد وضع أبوللونيوس الكيتيونى (النصف الأول من القرن الأول ق.م.) شرحاً على بحث « المفاصل »[٤٩] أحرز أهمية كبرى لأمر عرض فى نقله . ذلك أنه وجد منه فى فلورنسا[٥٠] مخطوط هو نسخة بيزنطية يعود تاريخها إلى القرن التاسع . واشتمل على أشكال جراحية (كالذى ورد فيها مثلا عند الكلام عن طرق إرجاع المخلوع) تعود إلى عهد أبوللونيوس، بل وإلى زمن أبقراط . ومثل هذه المدونات المعززة بالأشكال نادر للغاية ، لأن نقل الأشكال أعسر جداً من نسخ النص . وكثيراً ما أهمل . وبفضل أبوللونيوس انتهت إلينا أفكار واضحة عن ممارسة القدماء لفن الجراحة[٥١] .

الفلسفة الطبية والرسائل :

١٢ — كتاب الطب القديم De prisca medicina; Peri archaies ietrices.

هذا البحث قديم العهد ، ولنقل أواخر القرن الخامس . وليس مؤلفه هو مؤلف « كتاب الصرع » (المرض المقدس) و « كتاب التدبير الصحى فى الأمراض الحادة » ، و « كتاب الأوبئة » . ذلك لأن أسلوبه الأدبى أشد أناقة من أساليبها . ومؤلفه ، فيما يرجح ، أحد تلامذة الأستاذ الكبير ممن جمعوا بين الطب والسفسطة، أى الجدل والخطابة ، وشعروا بضرورة الدفاع عن الفن الطبى بأسلوب يرضى زملاءه .

يبدأ الكتاب باعتراض على خلط البحث الفلسفى بالطب . وهذا دفاع عن « الطب القديم » ، أى الطب العلمى (فى مقابل الطب الفلسفى) .

وكانت هناك حاجة إلى اختبار طويل لمعرفة الصالح وغير الصالح من

المآكل : كيف ينبغى أن تحضر وما المقدار الذى يلزم منها لحفظ الصحة عند الأقوياء أو لزيادة قوة الضعفاء . وما الفن الطبى إلا ضربٌ من تهذيب فن التغذية والتأنق فيه ، ومكتشفات الأطباء الحاذقين لا تختلف كثيراً عن مكتشفات علماء التغذية القدماء (ورأيى الخاص أن تعليل الفريقين واحد واكتشافهما واحد[٥٢] » . وكان عليهم أن يعينوا نوع الغذاء الموافق للمرضى (المرق أو النقيع أو الحبيص rhophemata) والذى يعيد إليهم عافيتهم بدلا من أن يقضى على ما بقى لهم منها) .

وليست الطبائع الأربع (الرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة) ذات أهمية نسبياً ، بل هنالك طبائع وقوى (dynameis) أخرى قد تفوقها أهمية وإن لم تكن أربعاً على التعيين — مثل : القوة ، والملوحة ، والمرارة ، والحلاوة ، والحدة ، والحموضة ، والرطوبة ، وكثير سواها وما لا يحصى مما يتركب منها .

وكان هذا ثورة مدهشة قام بها الإدراك الطبى السليم ضد التصنيفات المبتسرة .

ويدور الجانب الجدلى من هذا البحث حول تسفيه الافتراضات الواهية[٥٣] ، لأنه ينبغى أن يقف الطبيب عند القرائن التى فى متناول يده والتى يستطيع تحقيقها ، ولا بد له أن يكون رشيداً متواضعاً ، وفى اختصار ذا نزعة علمية .

عرف المؤلف من القدماء الكمايون Alcmaion وامپيدوكليس Empedocles وأناكساجوراس Anaxagoras ، واهتمامه الرئيسى فى[٥٤] ، على أن تقديره لطب القدماء مضلل نوعاً ، فقد كان هناك طب تجريبى وجراحة ، ولم يكن هنالك ، قبل أبقراط ، إلا القليل من الطب العلمى ، ولم يسلم الأطباء الأول أمثال الكمايون من تأثير الفروض الفيثاجورية . ويظهر أن المؤلف كان مقتراً على كبار معاصريه بقدر ما كان سخياً إزاء السالفين ، فهاجم الفلاسفة والعقليين غير الناضجين ، ولم يجد شيئاً يقوله عن الدجل الذى كان منتشراً فى المعابد . ولعله لم يتعمد بحث الخرافات (كما يسكت أطباء اليوم عنها) ، لأنه اعتبرها

خارجة عن الموضوع واعتبر الخوض فيها معيباً . أما إشارته إلى الأطباء الأغبياء « وهم الأكثرية الساحقة[٥٥] » فالمقصود بها غير الأكفاء لا المشعوذون .

وإليك تمهيده الهام :

« إن جميع الذين انتحلوا لأنفسهم . وهم يحاولون الكلام أو الكتابة فى الطب ، افتراضاً عدوه أساساً للبحث — كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . أو أى شىء آخر مما قد يجول فى خاطرهم ، والذين يحدون من مبدأ السببية المؤدى إلى المرض أو الموت . ويجعلونه واحداً فى جميع الحالات . مفترضين أمراً واحداً أو أمرين — إن هؤلاء جميعاً يخطئون فى مواطن كثيرة . حتى فيما يقررونه . لكنهم أشد عرضة للّوم لأنهم غافلون عن حقيقة الفن ، ذلك الذى يعتصم به جميع النـاس فى أحرج الظروف . ويؤدى أجمل الخدمات إلى محترفيه ومطبقيه . حقّاً إن من بينهم من هو ضعيف ، ولكن منهم من هو ماهر للغاية . ولو لم يكن فى الوجود فن كفن الطب . ولو لم يكن هذا الفن مجالا للبحث والاستكشاف . لما كانت الحال على ما وصفنا ، بل لكان الجميع سواء فى سوء الخبرة وقلة العلم ، ولكانت معالجة المرض اعتباطية من جميع الوجوه . وليس الأمر كذلك . وككل فن نجد بين المشتغلين بالطب الواسعى الاطلاع والحاذقين . كما نجد غيرهم . ومن أجل ذلك تقرر عندى أنه ليس ثمة داع إلى الفروض الواهية . أمثال تلك الأسرار الغامضة . التى يلجأ إلى افتراضها الباحثون عما هو فى السماء أو تحت الأرض . وليس للباحث فى هذه الأمور من سبيل للجزم بصحة ما يقول أو عدم صحته . لا لنفسه ولا لمستمعيه . إذ ليس هنالك من تجربة يؤدى إجراؤها إلى التثبت من أحد الوجهين

« وقد غدت وسائل الطب كافة منذ القدم فى متناول اليد . واكتشفت فى آن واحد منهجه ومبادئه . فاستطاع بذلك أن يحقق ، فى غضون زمن طويل . كشوفاً كثيرة وجليلة . واستكمال هذه الكشوف أمر محقق إذا كان الباحث كفئاً يعمد إلى البحث فى ضوء ما تم كشفه ويتخذ منه نقطة البدء . وكل من يحاول أن يوجه بحثه جهة أخرى . أو يعتمد منهجاً آخر . معرضاً عن جميع

هذه الوسائل ، رافضاً الأخذ بها ، ثم يؤكد أنه قد عثر على شيء ، كان ولا يزال ضحية الوهم دون نزاع » .

واقرأ كذلك الفصل العشرين :

« يؤكد بعض الأطباء والفلاسفة أن أحداً لا يستطيع فهم الطب إن كان يجهل ما هو الإنسان . ويرون أن من كان خليقاً بمعالجة المرضى معالجة صالحة ينبغي له أن يعرف ذلك . ولكن هذه معضلة فلسفية ، وتقع في نطاق العلماء الذين ألفوا في موضوع العلم الطبيعي كما فعل امبيدوكليس : ما هو الإنسان منذ البدء ، كيف برز إلى الوجود مبدئياً ، ومن أي العناصر كان تركيبه أصلا ؟ والذي أراه ، أولا ، أن جميع ما ذكره الفلاسفة أو الأطباء ، أو دونوه عن العلم الطبيعي ، لا يتصل بالطب أكثر منه بالتصوير . وأعتقد أيضاً أن المعرفة الخالصة بحقائق العلم الطبيعي إنما تستمد من علم الطب لا من مصدر آخر سواه . وفي استطاعة المرء أن يستوعب هذه المعرفة متى تم له تفهم الطب على الوجه الصحيح ، وإلا فتحقيق ذلك يكاد يكون مستحيلا — أعني أن يقف على : ما هو الإنسان ، وما هي العوامل التي انتهت إلى تكوينه ، ونظير ذلك من دقائق الأمور . وإذا صح ذلك فإنني أعتقد أنه ينبغي للطبيب الذي يرغب في أن يقوم بشيء من واجبه ، أن يعلم ، بل أن يبذل غاية الجهد كي يعلم ، ما الإنسان بالنسبة إلى ألوان الطعام والشراب ، وسائر العادات بصورة إجمالية ، وما أثر كل منها في الأفراد . وليس يكفي أن يعرف — مثلا — أن الجبن طعام رديء لأنه يسبب ألماً لمن أصابته منه تخمة ، بل ينبغي أن يعلم ما هو هذا الألم وما الذي يسببه ، وأي شيء في الجسم أصابه منه ضرر . هنالك كثير من الأطعمة الأخرى الضارة ، وألوان عديدة من المشروبات الأخرى المؤذية ، وجميعها تؤثر في الإنسان بطرق مختلفة . لذلك أوثر أن أضع هذه القضية على النحو التالي : « إن الخمور غير المخففة بالمزج ، إذا شربت بمقدار كبير تركت تأثيراً معيناً في الإنسان » . فجميع الذين يدركون ذلك يتحققون أنه ناشئ عن الخمر ، وأنها سببه . ونعلم ، من ثم ، في أي موضع من جسم الإنسان يغلب أن تترك الخمور معظم تأثيرها . وكم أود لو تجلت حلاوة الحق هذه في سائر الحالات

الأخرى . وبالرجوع إلى مثالى الأول : إن الجبن لا يضر بجميع الناس على السواء ، إذ يستطيع بعضهم أن يملأ جوفه منه دون أن يصاب بضرر ما ، بل إن الذين يوافق الجبن مزاجهم يستمدون منه قوة عجيبة ، فى حين يسبب لبعض آخر إزعاجاً شديداً . فالتكوين الإنسانى مختلف عند الفريقين ، والفارق فى هذا هو التكوين الذى لا يلائمه الجبن ، فيثور لذلك وينشط للعمل تحت تأثيره . وأولئك الذين يكثر فى أجسامهم مثل هذا العنصر ، ويعظم سلطانه عليهم يتكبدون منه ، بطبيعة الحال ، عناء أشد . ولو أن الجبن بالذات ضار بالتكوين الإنسانى بلا استثناء لكان ضرره لاحقاً بالجميع على السواء[٥٦] .

لدينا طبعتان حديثتان إحداهما لـ W.H.S. Jones « الفلسفة والطب فى اليونان القديمة » (Philosophy and medicine in ancient Greece) وهى الملحق الثامن من صحيفة تاريخ الطب Bulletin of the History of Medicine (100PP.; Baltimore, 1946)(Isis 37, 233 '1947',), وتشتمل على طبعة جديدة للنص وترجمة إنجليزية ، والطبعة الثانية لـ A.J.Festugiére « الطب القديم » L'ancienne medecine (136 pp. Paris : Klincksieck, 1948) مشتملة على نص هايبرج Heiberg اليونانى وترجمة فرنسية . وقد عنى الناشران بتوفير الشروح والتعليقات الكثيرة ، وبتصدير البحوث بالمقدمات المحكمة .

١٣ — كتاب الفن الطبى[٥٧] De arte, peri techne

وضع هذا البحث القصير الذى يصعد إلى العهد الأبقراطى الباكر ليثبت أن هنالك شيئاً يسمى الفن الطبى ، وليقف مدافعاً عن الذين يمارسونه ضد كل من يحاولون الحط من قدره . وربما كان المؤلف من غير المحترفين ، وقدحاول بعض الباحثين أن يدللوا على أنه بروتاجوراس Protagoras أو هيبياس Hippias ، ومثل هذه المحاولات الناشئة عن الرغبة فى تعيين مؤلف للكتاب المغفل عقيمة ، متى كان ما يؤيدها لا يزيد كثيراً عن مجرد الرغبة .

والذى نستنتجه من هذا البحث أنه كان فى زمن أبقراط ، كما فى عهدنا الحاضر ، أناس يشنعون على الأطباء زاعمين أن الشفاء إنما هو من قبيل الحظ ،

وأن المرضى غالباً ما يشفون من غير معونة طبية ، وأن البعض قد فاضت أرواحهم وهم بين يدى الطبيب ، وأن الأطباء طالما امتنعوا عن معالجة بعض الأمراض . أما الاعتراضات الثلاثة الأولى ففيها من الحق ما يكفى لأن يجعلها ذات وقع فى النفوس ، وأما الرابع فلا يقول به أحد اليوم ، فالأطباء لم يعودوا يمتنعون عن معالجة بعض المرضى الذين فقدوا الأمل فى شفائهم ، وإن كانوا يتمنون أحياناً ألاّ يدعوهم الواجب إلى معالجتهم .

١٤ — كتاب طبيعة الإنسان[٥٨] De natura hominis; Peri physios anthropu **وكتاب التدبير الصحى فى العافية**[٥٩] De sla lubri victus ratione Peri diaites hygieines هذان المؤلفان مجموعان فى مجلد واحد لأنهما كانا فى التاريخ القديم يؤلفان كتاباً واحداً ، وهما مجموعان كذلك فى سائر المخطوطات . واقتبس أرسطو نبذة من كتاب « طبيعة الإنسان » مهد لها بقوله « ويذكر بوليبوس فى هذا الصدد » فنسب هذا البحث ، على هذا الأساس ، إلى بوليبوس صهر أبقراط ، وهى نسبة معقولة[٦٠] . وقد أيدها مينون Menon تأييداً جزئياً[٦١] .

وإذا اعتبرنا الكتابين مؤلفاً واحداً فإنهما لا يكونان كلاً جيد التنسيق، بل مجموعاً من شذرات ضم بعضها إلى بعض اعتباطاً ، ومن هنا فإن البحث فى هوية المؤلف ، أمر عقيم نوعاً . وقد يكون لهذا المجموع مؤلفون عديدون . وقد يكون مينون على صواب حين نسب الفصل التاسع إلى أرسطو والفصل الثالث إلى بوليبوس . وصدر كتاب طبيعة الإنسان يذكر القارئ بكتاب الطب القديم ، وهنالك نقاط اتصال عديدة بكتب أخرى من مجموع النصوص .

وأهم ما فى « طبيعة الإنسان » بحث نظرية الأخلاط . وهو الكتاب الأبقراطى الوحيد الذى يعالج هذه النظرية معالجة جدية ، فى حين أن البحث المخصص لهذا الموضوع لا يخوض فيه . ويعارض المؤلف أولئك الفلاسفة الذين يذهبون إلى أن الكون ناشئ من مادة واحدة ، ثم يتوسعون فى هذه النظرية حتى

تشمل علم الطب . ولو صح ذلك ما كان هنالك إلا مرض واحد وعلاج واحد . والجسم الإنسانى مركب من أربعة أخلاط منفصلة . وقيام التوازن بينها هو شرط الحالة الصحية .

ومع ذلك يغلب بعضها بعضاً على حسب الفصول . ومن هذه الاعتبارات القياسية نستخرج قواعد المعالجة الصحية . ويشتمل الفصل الثانى على بيان مشوش عن الجهاز الدموى (وأقدم الأوصاف اليونانية لهذا الجهاز هى أوصاف سينسيس القبرصى Syennesis of Cypros وديوجنيس الأبوللونى Diogenes of Apollonia وهو ما نحن بصدده) .

ويقرر كتاب « التدبير الصحى فى العافية » قواعد للتغذية والتمارين الرياضية ، بحسب فصول السنة ومزاج الإنسان وسنه ، والوسائل التى تزيد المرء هزالا أو سمنة[٦٢] ، والظروف التى تستخدم فيها المقيئات والحقن . ويبسط أصول التدبير الصحى للأطفال والنساء وهواة الرياضة .

لدينا من هذا الكتاب ست « طبعات » قديمة بالنص اللاتينى (كليبس Klebs ٥١٩ . ٦٤٤ . ٨٢٦) نشر أقدمها فى ميلانو ١٤٨١ . وأحدث طبعة منه بالنص اليونانى هى التى أخرجها أوسكار فيلارت Oskar Villaret (٨٨ ص : برلين ١٩١١) .

١٥ — كتاب الأخلاط[٦٣] . De humoribus Peri chymon قد يكون هذا الكتاب أشد هذه المصنفات تشويشاً وأدعاها إلى الغرابة والحيرة . وقد قال ليتريه عنه إنه خليق بأن يسمى كتاب الأوبئة الثامن (نشره بعد مجموع الأوبئة المشتمل على الكتاب الثانى والرابع إلى السابع) . أما جونز فكان أعنف فى الحكم عليه حيث قال : « وبينّ أنه مسودة فى أشد حالات التشويش . ومجرد من كل مسحة أدبية . وفيه قسط من الغموض والإبهام » . ومع ذلك فهو مسودة أبقراطية صحيحة النسبة ، وقد سبق لقدماء الشارحين أن عرفوها . والكتاب جمهرة من ملاحظات عنى بجمعها أحد الأساتذة أو الطلبة . وكل فرض بالنسبة له جائز وإن كان لا يمكن إثباته .

وهو حافل بالألغاز . وأولها عنوانه الخاص . إذ يكاد لا يعالج موضوع الأخلاط مطلقاً . ولا يعرض لها إلا كتاب أبقراطى واحد ، هو « طبيعة الإنسان » .

وبرغم الغموض الشائع فيه (أو بسببه) تكرر نسخه وطبعه .

١٦ ــ كتاب الأهوية والأمواه والأماكن[٦٤] : De aere locis aquis; Peri aeron hydaton topon .

صحيح النسبة بلا شك (أى أنه أبقراطى قديم) ، وفوق هذا هو من أدهش ما أنتجه النبوغ الأبقراطى (أو قل اليونانى) . لأنه أول بحث فى الأدب العالمى يعالج علم المناخ الطبى (راجع ما ذكرناه عن ذلك فى الفصل السابق) ، وأول بحث فى علم الأجناس البشرية .

يوضح أبقراط فى هذا الكتاب أنه ينبغى للطبيب أن يوجه انتباهه التام إلى المناخ فى كل منطقة من المناطق ، وإلى تقلبات الطقس الناجمة عن تغير الفصول ، وعن مدى التعرض للمؤثرات المتباينة ، وطبيعة ما يتيسر لنا من الماء والطعام ، وما إلى ذلك . وينبغى أن ندرس كل مسألة طبية فى جوها الجغرافى والبشرى الخاص . لأن الأمراض تختلف باختلاف الأماكن تبعاً لتباين طبيعة سطح الأرض ، واختلاف المناخ ، وتفاوت الطبيعة الإنسانية . وتأييداً لهذا التعليل يثبت المؤلف عدداً كبيراً من الأمثلة التى جمعها فى غضون أسفاره .

ويعالج القسم الثانى من الكتاب (الفصل الثانى عشر إلى الرابع والعشرين) تأثير المناخ فى الطباع ، وهو ضرب من البحث التاريخى من الوجهة الأنثروبولوجية : ما الفرق بين أوربا وآسيا . أو بين الهيلينيين والبرابرة ؟ يرجع أبقراط هذه الفروق ، بوجه خاص ، إلى اعتبارات مادية (جغرافية) . وهذا ما فعله معاصره هيرودوت الذى أورد هذا التعليم على لسان قورش Syros ملك الفرس . فجعل بذلك لمؤلفه التاريخى خاتمة من أروع الخواتم .

ومن أروع الفصول فى الأنثروبولوجية الأبقراطية الفصل الثانى والعشرون الذى يعالج موضوع الخصيان السيتيين أوالحنائى[٦٥] . ومع أننا نكاد لا نتوقع أن يكون التعليل الطبيعى الذى يورده المؤلف لهذه الظاهرة الغريبة صحيحاً ، فإنه من المدهش جداً أن يكون قد حاول إيراد مثل هذا التعليل ، لا سيما إذا تذكرنا أن المناقشة الصريحة لحالات الشذوذ الجنسى فى أغلب الظن ، من فتوحات عصرنا الحاضر .

ويشهد على شهرة هذا البحث العدد الوافر من مخطوطاته وطبعاته . فهنالك أربع طبعات قديمة للنص اللاتينى يعود أقدمها إلى سنة ١٤٨١ (Klebs, 644, 2, 826. 1-2)

أما الطبعات الحديثة لهذا النص فينبغى — أن نشير من بينها — بصورة خاصة — إلى تلك التى أعـــدها البحاثة والوطنى اليـــونانى ادامانتوس كورايس Adamantos Coraes ("Coray," 1748-1833) مع ترجمة فرنسية (مجلدان . باريس ١٨٠٠) . ولهذا الكتاب خمس ترجمات إنجليزية على الأقل أولاها لبيتر لو Peter low (لندن ١٥٩٧) . انظر أيضاً كتاب Lugwig Edelstein, Peri aeron und die Sammlung der Hippokratischen Schriften (196 PP. Berlin, 1931) وكذلك مقال ((Isis 21, 341 (1934)) وانظر أيضاً

Arne Barkhuus,"Medical surveys fromHippocrates to the world travelers, Medical geography, geomedicine," *Ciba Symposia* 6, 1986-2020 (1945).

وفى الفصل الثالث عشر شروح إضافية عن هذا البحث لمن شاء التوسع

١٧ — **كتاب الغذاء**[٦٦] : De alimento; Peri trophes

يمكن اعتبار هذا الكتاب من مؤلفات الحكم ، وهو مقسم إلى خمسة وخمسين فصلا ، ثمانية عشر منها لا يزيد أحدها فى النص اليونانى عن سطرين ، وتسعة وعشرون يتراوح الواحد منها بين الثلاثة والخمسة الأسطر ، وثمانية فقط يزيد كل منها على ذلك قليلا وإن كان لا يبلغ العشرة الأسطر ، وثلاثة وثلاثون لا يبلغ الواحد منها الأربعة الأسطر . وهذا الكتاب منقطع النظير بين مجموع النصوص الأبقراطية لما يمتاز به من الطابع الهيراكليتى . وتاريخه متأخر عن هيراكليتوس ، ويغلب على الظن أنه سابق للقرن الرابع ، ولعله يعود إلى أواخر الخامس .

يحاول المؤلف فى هذا الكتاب أن يشرح عملية التغذية البالغة التعقيد . ومعلوم أن فهم هذا الأمر على الوجه الصحيح متعذر قبل نشأة علم الكيمياء الحديث ، وليس غريباً أن يخفق المؤلف فى هذا ويعتصم بالتكهنات الغامضة . ثم يدلى فى كثير من الفصول بمعنيين متعارضين ، تاركاً الاختيار للقارئ . على أن هنالك أمراً واحداً أحسن إدراكه وهو أن الطعام ينبغى أن يتحول إلى سائل حتى يتمكن الجسم من تمثيله[٦٧] . وأدرك أيضاً الحقيقة البينة وهى أن الغذاء قوام الحياة (فقوة الطعام تحل محل النار فى نظام هيراكليتوس) . ونعود

فنقول : كيف كان يمكن فى القرن الخامس قبل الميلاد أن يدرك أى شخص الظاهرة الكيموية العجيبة فى تحول الطعام إلى لحم وعظم، وإلى دم ولبن « كزوائد »[٦٨] (Pleonasmos) . وليس ثمة طعام نافع إطلاقاً بل بالنسبة إلى شخص معين . وغرض مقرر ، وجميع الأشياء نافعة أو ضارة على نحو نسبى[٦٩] » .

ولننظر فى أمثلة أخرى قليلة[٧٠] (وقد اقتبست أربعة فصول بنصها الكامل) :

« الغذاء وشكل الغذاء واحد ومتعدد، واحد باعتبار أن نوعه واحد، أما شكله فيختلف باختلاف الرطوبة واليبوسة . وللأغذية أشكالها الخاصة ومقاديرها المعينة . وهى صالحة لأشياء معينة . ولعدد محدود من الأمور» .

وهذا ضرب من الأحاجى التى عالجها قدماء فلاسفة اليونان : الواحد فى مقابل المتعدد . وأنواع الأغذية الكثيرة تؤدى إلى نتيجة واحدة هى النمو العضوى .

وفى النص التالى ما يوضح الغموض الهيراكليتى .

الغذاء هو ما يغذى ، والغذاء هو الشىء الصالح لأن يغذى ، والغذاء هو ما يوشك أن يغذى . بداية جميع الأمور واحدة ونهايتها جميعاً واحدة ، والنهاية والبداية شىء واحد .

على أن خير الفصول هو :

« إن النبض وحركة التنفس تابعان للسن، فاتساقهما وعدم اتساقهما من دلائل المرض والصحة — الصحة أكثر من المرض ، والمرض أكثر من الصحة — لأن التنفس هو الآخر غذاء » . وقيمة هذا القول لا ترجع فقط إلى أنه ملموس أكثر من كل ما تقدم ، بل لأنه يعتبر أيضاً أقدم إشارة إلى النبض فى الأدب اليونانى . ولأنه يعد الهواء غذاء . إن عدم ورود إشارات أخرى إلى حركة النبض البسيطة لمن الظواهر الغريبة فى النصوص الأبقراطية[٧١]. أما فيما يتعلق بالهواء . فمن البديهى أنه لا غنى للحياة عنه ، واعتباره غذاء فى ذلك العهد لا يمكن أن يحمل إلا على أنه من باب الحدس أو على سبيل المجاز .

١٨ــ كتاب استخدام السوائل[٧٢] De liquidorum usu ; Peri hygron Chresios وهو مجموعة ملاحظات تتعلق بالماء العذب والملح ، والخل والخمر ، واستخدام السوائل الحارة والباردة . ولعله ملخص عن بحث أوسع مفقود . ولم نشر إليه هنا إلا لأنه موجود فى مجموع نصوص الطب اليونانى Corpus medicorum graecorum.

١٩ ــ كتاب التدبير الصحى ، القسم الأول إلى الرابع[٧٣] . Regimen I-IV De victu (يدعى القسم الرابع فى الغالب كتاب الأحلام De insomniis أو Peri diaites, Peri enypnion). ، (De somniis

وقد نسب هذا الكتاب إلى هيروديكوس السلمبرى ، وأبقراط ، وفيليستيون الاوكرى ، وسواهم . ويصعد تاريخه ، فى الراجح ، إلى العصر الأبقراطى . لكنه ــ قطعاً ــ ليس أبقراطياً بالمعنى الصحيح ، لأنه حافل بالأوهام الفلسفية والافتراضات الاعتباطية . ويعثر فيه القارئ على آثار من تعاليم هيراكيتوس ، وأنبادوقليس ، وأناكساجوراس ، والفيثاجوريين . وتشتمل الطبعات الحديثة على أربعة أقسام ، للرابع منها عنوان إضافى هو « الأحلام » . وتبدأ بعض الطبعات القديمة بالقسم الثانى . وكان هذا المؤلف مقسما فى عهد جالينوس إلى ثلاثة أقسام ، وكان القسم الرابع مجرد خاتمة للقسم الثالث . وعلى كل ليس ثمة ما يجمع بين الأقسام الأربعة إلا ذلك العنوان الذى قال به المؤلف ، وهو « كشفه » (heurema) ، ويتلخص هذا الكشف فى أن العاملين الأساسيين فى حفظ الصحة هما الغذاء والتمرين الرياضى ، وينبغى أن يكونا على جانب وافر من التوازن . وإذا طغى أحدهما على الآخر وجب اتخاذ كل الاحتياطات لإعادة حالة التوازن . وهذا يوفر للطبيب منهجاً صالحاً لمعالجة مرضاه .

ويوافق المؤلف على وجود العناصر الأربعة ، وإن كان يحاول أن يجمعها فى اثنين : النار والماء ــ وبذلك يستخلص علم وظائف الأعضاء ، من التباين بين هذين العنصرين . مما يؤدى إلى تغيرات لا نهاية لها . والفكرة العامة غير واضحة . ومحاولات تطبيقها (على علم الأجنة مثلا) فيها كثير من

التكلف والتمويه . وفى القسم الأول يلجأ المؤلف إلى مثل هذه التصورات لبيان ما تتألف منه الأجسام الحية ، وإيضاح فروق السن والجنس ، واظهار طبيعة الصحة البدنية والسلامة العقلية . ويعالج فى القسم الثانى خصائص البلدان على اختلافها ، وأنواع اختلافها . وأنواع الرياح والأغذية ، والمشروبات ، وضروب الرياضة . ويصف فى الثالث العلامات التى تكشف عن سوء التوازن بين الغذاء والرياضة وتنبىء بهجوم المرض . ويشرح فى الرابع كيف يمكن أن تساعد الأحلام فى الدلالة على حالات عدم التوازن التى هى فى سبيل التكون .

ويبحث المؤلف ، فى الفصل السادس إلى الواحد والثلاثين من القسم الأول ، المسائل الجنينية . فيبين أن الجنين ينشأ من المنى الذى هو النفس بالذات . وهذه « النفس المنوية » مزيج من النار والماء ، ومؤلفة من أجزاء (merea) ناشئة من جسدى الوالدين كليهما . أما التطور الجنينى اللاحق فشبيه بإخراج قطعة موسيقية بحيث يكون الجنين منها بمثابة آلة العزف . هذه التصورات الموسيقية — الجنينية ، كما هو واضح ، تعود إلى أصل فيثاجورى ، وقد زاد فى غموضها اضطراب النص [٧٤].

ومن أمتع ما فى هذا الكتاب للقارئ الحديث وصف التمارين الرياضية والمقارنة بين أنواعها (العادى منها كالمشى ، والعنيف كالسباق والمصارعة) وأساليبها ونتائجها [٧٥] . وكذلك القسم الرابع فى موضوع الأحلام ، وهو جزيل الفائدة . وقد جاء فيه أن هنالك نوعين من الأحلام : إلهى وهو خاص بمعبرى الأحلام ، وفسيولوجى وهو الذى يستدل به الأطباء على العلة . ومتى تعرض العرافون لتعبير النوع الثانى من الأحلام كان الفشل نصيبهم فى غالب الأحيان . « فهم يوصون بأن تتخذ الاحتياطات لمنع الضرر ، ولا يرشدون إلى طرق الوقاية ، ويوحون فقط بتقديم الصلوات إلى الآلهة . والصلاة محمودة بلا ريب ، ولكن ينبغى مع التوسل إلى الآلهة أن يساعد الإنسان نفسه [٧٦] » .

وبذا تجمع الأقسام الأربعة بين الأفكار الغريبة والملاحظات الجيدة ، وتصور ذلك الارتباك الذى بليت به العقول — حتى الجيد منها — عند ما حاولت توضيح الأمور الطبيعية والفسيولوجية المعقدة التى كانت فى غير أمل بعيدة عن متناولها .

ويبدو الإدراك الأبقراطى السليم هنا وهناك ، على الرغم من طغيان النظريات المبتسرة .

و « كتاب الأحلام » أول دراسة علمية لموضوع سحر الجماهير فى التاريخ القديم والمتوسط ، بل وقطعاً فى كل العصور . ومهما بدت هذه الدراسة غريبة وغير ملتئمة لرجل العلم الحديث ، فإنها تمثل المحاولة الأولى لتفسير ألغاز عالم الأحلام تفسيراً معقولا ، واستخدامها فى شفاء الأمراض . إن مؤلف هذا الكتاب يعد الجد الأعلى لفرويد Freud .

وبعض الأحلام التى نظر فيها المؤلف ذات صلة بالظواهر الفلكية (فقد يرى النائم ، فيما يرى ، الشمس والقمر) . ومما يلفت النظر أنه لا يصنف مثل هذه الأحلام مع الأحلام الإلهية ، بل يضمها إلى الفسيولوجية . ومن هذه الناحية وحدها لا يصح القول (كما فعل [٧٧] جونز بأن كتاب (De insomniis) هو أقدم ما ورد فى الأدب القديم « عن الصلة المزعومة بين الأجرام السماوية ووقائع حياة الأفراد » . وفضلا عن ذلك فمن غير الثابت أن ذلك البحث أقدم من كتاب أفلاطون المسمى Epinomis ، بل ولا يسبق نشر فيليب الأبوسى Philip of Opus لهذا الكتاب بعد وفاة صاحبه .

كان (De insomniis) من أقدم ما نشر من كتب أبقراط . وقد طبعت ترجمته اللاتينية على حدة فى روما سنة ١٤٨١ . ثم ألحقت بالنشرات السابقة لكتاب (Aphorismi) لابن ميمون ، ولكتاب المنصورى للرازى (Klebs, 517, 2-3) 826, 644. ومجموعها أربع طبعات قديمة تتابعت بين ١٤٨١ و ١٥٠٠

٢٠ ـ كتاب النسمات [٧٨] De flatibus; Peri physon. .

ويصعد إلى العهد الأبقراطى ، ويساعدنا على إدراك المعضلات الكبرى التى ساورت الفكر الطبى فى ذلك العصر . ولهذا السبب بالذات بدا لنا أن مراجعة هذا العدد الوافر من الكتب كلا منها على حدة أمر مفيد للغاية . ومعضلات الفكر الطبى أمر غير مستغرب متى تذكرنا أن العصر كان عصر نشاط عقلى ورغبة ملحة فى الاستطلاع . وكانت الملاحظات الطبية تتجمع فى بعض الأماكن الملائمة .

ونبهاء الأطباء يحاولون تنظيمها على أساس نظراتهم الفلسفية . على أن أساس تفكيرهم الفلسفى قلما كان متجانساً لأنهم خضعوا فى أواخر القرن الخامس لمؤثرات كثيرة متباينة . لذلك عمد الطبيب المفكر ، إذ وجد نفسه تجاه مشاكل مستعصية ، إلى محاولة حلها من الناحية التى بدا له فيها أمل النجاح أقرب تحقيقاً .

ذهب أناكسيمينيس Anaximenes إلى أن الهواء (pneuma) هو المبدأ الأول . ثم عمد ديوجنيس الأبولونى Diogenes of Apollonia إلى تطبيق ذلك على علم وظائف الأعضاء . وأهمية الهواء ، فى الواقع ، لا تحتاج إلى إيضاح . تأمل الريح فى جميع ضروبها : نسيم الربيع اللطيف ، هبات الصيف المفاجئة ، عواصف الشتاء القارسة والزوابع القاتلة ، وتأمل الهزات الأرضية[٧٩] . إن حاجة الجسم الإنسانى إلى الهواء الطلق لأمر بديهى ، وكذلك خطر الافتقار إليه أو عدم انتظام دورته . وكان فى استطاعة الطبيب أن يلاحظ سهولة التنفس عند الأصحاء وعسره عند الأعلاء ، وحشرجات الصدر فى أولى مراحل الاختناق ، وفى استطاعته أيضاً أن يراقب التجشؤ ، وانتفاخ الأحشاء ، وقرقرة البطن ، وخروج الريح منه . وقد عرف الأوجاع الناجمة عن احتباس الريح فيه . والحق أن الهواء (pneuma) شرط من شروط الحياة ، حتى إذا أطلق المرء نفسه الأخير أدركته الوفاة . ومن يدرى فلعل النفس (Anima) ضرب من الهواء ؟

لم يكن مؤلف « كتاب النسمات » طبيباً أبقراطياً ، بل ربما لم يكن طبيباً على الإطلاق . وكان بلا ريب فيلسوفاً سوفسطائياً ممن يهتمون أولا بحقائق الحياة والعافية . وكتابه نوع من القول الذى يقوم على أن جميع الأمراض ناجمة عن الهواء ، وخاصة ذلك الهواء الموجود فى الأجسام الحية (Physa) . ولعل بعض البحوث الأبقراطية الأخرى مثل كتاب « طبيعة الإنسان » وكتاب « النظب القديم » إنما وضعت لنقض آرائه (وما جرى مجراه) .

ومن الخير أن نقارن هنا ما فى كتاب De flatibus من آراء فى الهواء بما

يشابهها مما جاء فى الأدب السنسكريتى القديم؛ وقد حاول ذلك جان فيليوزات[٨٠] Jean Filliozat ، واقتبس وترجم نصوصاً فى الموضوع عن كاراكا Caraka ، وبهيلا Bhela . وسوسروتا Susruta . وهى نصوص تقرر نظرية الهنود فى الهواء ، وتعين الفضائل الأساسية « للرياح » فى الطبيعة جملة وفى الأجسام الحية. وبكلمة موجزة تعالج الفكرة العامة التى تباورت فى المعانى المختلفة لهذه الألفاظ : الهواء (pneuma) والروح (spiritus) والنفس (anima) ، على أنه من المتعذر إثبات أى اقتباس من السنسكريتية إلى اليونانية أو بالعكس . فالأفكار الرئيسية مشتركة. وكثير مما عداها متباين ، وليس هنالك تطابق حرفى فى النصوص . وتعليل هذا التشابه بين التراث اليونانى والتراث الهندى ممكن على أساس انتشار هذه الآراء انتشاراً غير واضح المعالم . ذلك أنه كان بين بلاد الهند وبلاد اليونان اتصالات كثيرة قبل عهد الإسكندر . ويُعلل ذلك أيضاً بأنه وليد تأمل مستقل فى حقائق هى موضوع تجربة مشتركة . هى الحاجة إلى « الرياح » فى الطبيعة وفى الأجسام . وما يتخلف عنها بين حين وآخر من مضايقات ، أوضح من أن تفوتها الملاحظة .

جمع أكثر الطبعات التى ظهرت فى القرن السادس عشر لكتاب « النسمات » De flatibus بين الأصل اليونانى والترجمة اللاتينية . وأحدث طبعة للنص اليونانى ، إلى جانب طبعات لويب Loeb ومجموع المصنفات الطبية اليونانية (Corpus medicorum graecorum) ، هى طبعة اكسيل نلسون Axel Nelson ، وعنوانها Die Hippokratische Schrift Peri physon ، (Uppsala, 1909) وتشتمل على ترجمتين لاتينيتين وضعتا فى عهد النهضة الإيطالية الأولى على يد فرنسيسكو فيلفو (١٣٩٨ — ١٤٨١) Francesco Filelfo والثانية على يد جانوس لسكاريس (١٤٤٥ — ١٥٣٥) Janus Lascaris .

مؤلفات الحكم :

فى مجموع المصنفات الأبقراطية عدد يمكن أن يضم بعضه إلى بعض ، لأنه مؤلف فى شكل حكم موجزة ، وضعت كل مجموعة منها تحت عنوان واحد فى

قليل من النظام أو بغير نظام . وقد عرضنا فيما سبق لأحدها وهو «كتاب الغذاء» .

والراجح أن أقدم هذه المؤلفات كتاب « الأقوال الكنيدية » . وهو مفقود . ويشير عنوانه بالذات إلى أنه مجموعة من الأقوال المأثورة التى اشتملت على خلاصة حكمة الأطباء الكنيديين (وفى مجموع المصنفات الأبقراطية عدد من المؤلفات الكنيدية) . لأن مدرستى كوس وكنيدوس متجاورتان (وطبيعى أن توجد بعض الكتب الكنيدية فى المكتبة القومية) . وقد يرى البعض أن كتب الحكم والنصائح لا بد أن تكون قديمة ، لأن استخدام الأمثال من ضروب التعبير البدائى . ويكاد يكون ثابتاً أن بعض هذه المجموعات قديم ، ولكن لنحذر التعميم . إن حب الحكم والأمثال شائع عند جميع الشعوب فى جميع العصور ، ويروج أحياناً ويكسد أحياناً أخرى دون انقطاع . ويميل جونز « ٨١ » إلى رد كتب الحكم فى مجموع المصنفات الأبقراطية إلى النصف الثانى من القرن الخامس . وذلك بالترتيب التقريبى : كتاب « المقدمات التمهيدية » الأول Prorrhetic I, ٤٤٠ . « الحكم » Aphorisms ٤١٥ «التكهنات القومية» Coan prenotions ٤١٠ . « الغذاء » Nutriment ٤٠٠ « والتسنين » Dentition بعد ذلك (؟) . وسأعرض لها بهذا الترتيب باستثناء كتاب « الغذاء » الذى سبق الكلام عنه .

الشعر والأمثال أقدم أبواب الأدب عند الأمم كافة . وتمتاز الأقوال الحكمية بأنها سهلة الحفظ ، والذين يتداولونها يسمون أنفسهم ، دون تكبد أى عناء ، بسمة الحكمة وغزارة العلم . على أن نجاح الحكمة الطبية فى القرن الخامس لم ينجم عن الرغبة الشعبية فى الأمثال فحسب . بل عن حكم هيراكليتوس وسواه من الفلاسفة . وعن قصائد بندار Pindar وغيره من شارحى المثل العليا اليونانية . وكان من المغرى أن تقتبس أبلغ الأبيات من قصيدة عصماء فتغدو ، لكثرة تداولها ، من باب الحكم . ولا يزال الأمر كذلك حتى هذا اليوم . فإن كثيرين من الناس يعبرون عن مشاعرهم بضرب الأمثال ، واقتباس آية من الكتاب المقدس ، أو بيت من شعر شكسبير ، وهو أمر سهل للغاية وسار .

(٢١) كتاب المقدمات التمهيدية الأول[٨٢] Prorrhetic I De praedictionibus Prorrheticon a.

وهو مجموع من الحكم الطبية على غير نظام . ويشتمل على ١٧٠ حكمة موجزة، سبع عشرة منها (أى العشر) خاصة بهذا المجموع . أما الأغلبية المطلقة فهى جزء من « التكهنات الكوسية » .

أثارت إحدى هذه الحكم[٨٣] كثيراً من النقاش وهى . « المخبولون يشربون قليلا . يزعجهم الصوت وتدركهم الرعشة » . وقوله « يشربون قليلا » (brachypotai) هو موضوع النزاع . وإذا كان المقصود الإشارة إلى داء الكلب فإنه ليس جديداً بل قديم جداً . ولأرسطو فصل يشير إليه صراحة، وإن كان ينتهى بحكم خاطئ[٨٤] .

وكتاب « المقدمات التمهيدية » الأول يختلف جداً عن الثانى ؛ وحظ الأخير من البلاغة كحظ الأول من الركاكة ؛ (انظر الفقرة الرابعة) .

(٢٢) كتاب الحكم[٨٥] Aphorismi sive sententiae; Aphorismoi.

وهو أشهر كتاب فى كل مجموع المصنفات ، وترجع شهرته نوعاً ما إلى حب الناس جميعاً « للحكمة الموجزة » — الحكمة المفرغة فى أقراص صغيرة يسهل ازدرادها ، إن صح هذا التعبير . والذى يشهد على شدة رواجه كثرة نسخه المخطوطة الموجودة فى لغات كثيرة[٨٦] . وتعدد الشروح، وشروح الشرح ، ووفرة الكتب التى نسجت على منواله ، وأشهر هذه « كتاب الفصول فى الطب » لابن ميمون (النصف الثانى من القرن الثانى عشر) الذى كان بدوره طليعة حقبة جديدة فى تاريخ الطب .

طبع كتاب الحكم لأول مرة (باللاتينية) سنة ١٤٧٦ ، وظهرت له منذ ذلك الحين طبعات كثيرة بلغات عديدة . ولقد كان كل طبيب مثقف، حتى القرن الثامن عشر ، يقتنى نسخة منه ، ويقرؤه كأنه كتاب من كتب الصلوات الطبية .

وهذه المجموعة . كما هى بين يدينا . مقسومة إلى سبعة أقسام تشتمل على ٤١٢ حكمة . موزعة بين الأقسام السبعة بغير نظام[٨٧] . هذا باستثناء ما يعرض للقارئ أحياناً من أقوال متتالية تدور حول موضوع واحد . وتكاد هذه الحكم تغزو كل موضوع طبى إلا الجراحة . على أن بعضها قد ورد فى مؤلفات أبقراطية أخرى . مثال ذلك أن ستاً وثمانين منها وردت أيضاً فى كتاب التكهنات الكوسية Coan prenotions .

إن كتاباً من هذا النوع ليتحدى التحليل . لذلك كان خير ما نستطيع القيام به أن نثبت منه بعض النماذج .

والحكمة الأولى معروفة ، بوجه العموم ، لا فى الأوساط الطبية فحسب ، بل فى أوساط المثقفين إجمالا . ويعرف أكثر الناس مع هذا قسمها الأول فقط ، ويجهلون الثانى الذى هو مستقل عن الأول ويعبر عن الاتجاهات الأساسية فى تعليم الطب الأبقراطى : (ولعلهما فى الأصل حكمتان مختلفتان التصقت أولاهما بالثانية مع توالى النسخ) ، ونصهما :

« الحياة قصيرة ، والفن طويل ، والفرصة هادية ، والتجربة تخون ، والحكم عسير . ينبغى للطبيب أن يكون مستعداً دائماً ، لا لأن يقوم بواجبه فحسب ، بل لأن يؤمن تعاون المريض والمساعدين والخارجيين أيضاً[٨٨] » .

والحكمة التالية تعالج التدبير الصحى الخاص بأبطال الرياضة ، ولم نثبتها هنا كاملة :

« إن الوضع الأكمل فى حياة أبطال الرياضة خوّان متى كان فى أوجه الأعلى ، لأنه لا يمكن أن يستمر . ولا أن يستقر فى مستواه ، ما دام التحول إلى ما هو أفضل أمراً متعذراً ، والتحول الوحيد الممكن إنما هو إلى أسوأ . والخير إذن أن يخفض هذا الوضع الممتاز كيما يتهيأ للجسم أن يباشر مرحلة نمو جديدة . على أن إضعاف الجسم ينبغى ألاّ يبلغ حد الإفراط ، وإلا كان خطراً . وينبغى أن يوقف به عند حد يتناسب مع تكوين الشخص[٨٩] » . . .

وها هى ذى حكم أخرى أخذت دون قصد تقريباً :

« المسنون أقدر على الصوم من سواهم ، ويليهم المتوسطون فى العمر . أما الأحداث فصبرهم على ذلك عسير ، وأعسر ما يكون الصوم على الأولاد ، لا سيما أولئك الذين تزيد حيويتهم عما هو معتاد » .

« الأجسام غير السليمة يزداد ضررها بازدياد غذائها . من الخير للمصابين بالرمد أن يبتلوا بالإسهال » .

« إن الذين تحدوبد ظهورهم قبل المراهقة ، على أثر السعال أو داء الربو ، لا يرجى لهم من ذلك شفاء[٩٠] » .

إن مجموعاً كهذا لشبيه ببناء لم تربط حجارته بالأسمنت . هذا إلى أن الفوارق بين طبعاته وترجماته كثيرة ، ومن السهل أن تدس فى النص حكم جديدة ، وأن يهمل منه ما لم يعجب الناشر .

انظر القسم الأخير من هذا الفصل ، ففيه بسط للطب الأبقراطى فى أدب العصور الوسطى .

(٢٣) كتاب التكهنات الكوسية[٩١] ; Coan prenotions

يقسم هذا المؤلف ، مثل كتاب الحكم الطبية ، إلى سبعة أقسام ، ويشتمل على ٦٤٠ حكمة منثورة فى غير نظام . ويغرى الكثير منها بالتعليق الطبى . وقد أتى ليتريه Littré بحوادث طبية من عصره ليمثل بها على ما أشار إليه الطبيب الكوسى :

(٢٤) كتاب التسنين[٩٢] . De dentitione; Peri odontophyies

هذا المجموع المؤلف من اثنتين وثلاثين حكمة طبية يتعلق بحالة الأطفال الصحية وعلاجهم لا سيما فى طور التسنين . ويمكن أن يقسم إلى قسمين : الأول (١ — ١٧) خاص بالتسنين (odontophyia) ، والثانى (١٨ — ٣٢) يتعلق بتقرح اللوزتين (parishmia) واللهاة والحلق . وغالب الظن أن قسم التسنين مستخرج من مجموع أكبر انتزعه ناشر قصر اهتمامه على طب الأطفال . وإذن هذا القسم أقدم بحث موقوف على هذا الفرع من فروع الطب . ولا ينفى هذا وجود ملاحظات كثيرة تتعلق بطب الأطفال فى كتب عديدة أخرى من مجموع المصنفات الأبقراطية .

علم الواجبات الطبية

من الطبيعى أن يجمع فى باب واحد عدد من النصوص الخاصة بواجبات الأطباء ، والطريقة اللائقة التى ينبغى أن يتقيدوا بها فى معاملة المرضى . ويستدل من محتويات هذه الكتب أن الأطباء أخذوا فى تنظيم أنفسهم فى هيئة مهنية ذات مسئوليات معينة وامتيازات خاصة . وليس لدينا إثبات آخر على وجود هيئة من هذا النوع . ولذلك يتعذر علينا أن نعين المدى الذى بلغته من التنظيم . ومن المحتمل أنها كانت نقابة ، أو على الأرجح جماعة ليست ذات صفة قانونية تألفت من كبار الأطباء ومساعديهم وطلابهم المتدربين . وأقدم هذه النصوص وأهمها إطلاقاً هو يمين أبقراط المشهور .

(٢٥) اليمين[٩٣] . Insiurandum; Horcos.

يراد بها تلك اليمين التى كان الطلاب المتدربون يحلفونها قبل أن يقبلوا كأعضاء فى النقابة أو جمعية الأطباء الكوسيين ، ولم يكن . على حسب العبارة الأولى . مجرد قسم بل كان ميثاقاً (syngraphe) يتعهد به المتدرب أن يعامل أولاد أستاذه كما لو كانوا إخوته ، وأن يشرك أستاذه فى رزقه ويخف إلى مساعدته إن دعت الحاجة إلى ذلك . وأن يعلم أولاد أستاذه دون أن يتقاضى منهم رسوماً أو يفرض عليهم قيوداً ، وأن يدلى بالإرشادات المفصلة إلى أولاده هو . وأولاد أستاذه . وعدد قليل من الطلاب الآخرين الذين أقسموا اليمين ووقعوا الميثاق . لا إلى أحد سواهم . ومعنى هذا أن المهنة لم تكن منظمة فحسب بل إن استمرار احتكارها كان مضموناً . وهكذا كان التعليم الطبى قائماً على أساس نقابى .

ويتعذر علينا تعيين تاريخ هذا القسم . وغالب الظن أنه عرف منذ العصر الذهبى للمدرسة الكوسية .

وفيه نبذة مدهشة للغاية : « أتعهد بألا أستخدم المبضع حتى ولا على الذين يعانون من الحصاة . بل أفسح المجال للأخصائيين الذين حذقوا هذا العمل » . ورأى بعضهم أن الذى كان محظوراً إنما هو الخصاء لا إخراج

الحصاة بعملية جراحية . وأطباء اليونان ما كانوا يخشون من استخدام اللفظة المناسبة . أما الرأى القائل بأن الجراحة كانت محظورة على الأطباء . متاحة لمن هم دونهم من المساعدين . فلا يتناسب مع ما نعرفه عن الجراحة الأبقراطية . ذلك أن هذا التحامل على الجراحة وليد العصور الوسطى لا القديمة . وجرى الناشرون مؤخراً على حذف هذه العبارة من طبعات هذا النص الحديثة .

واليمين هى الوثيقة الأساسية فى علم الواجبات الطبية . وشهرتها عظيمة . وكثيراً ما عدّت جزءاً جوهرياً من مجموع مصنفات أبقراط . وفوق هذا فالمثل العليا التى عززها كانت مقبولة لدى الكثرة المطلقة من المدارس الطبية فى التاريخ اليونانى — العربى — اللاتينى حتى يومنا هذا . وفيما يتعلق بتاريخه . انظر :

W.H.S. Jones, *The doctor's Oath* (61 pp.,Cambridge; (1924) (*Isis* 11, 154 (1928); Ludwig Edelstein, *The Hippocratic Oath. Text, translation, and interpretation* (70 pp.; Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1943) (*Isis* 35, 53 (1944).

وبحوث متفرقة فى : مجلة ايزيس

Isis 20, 262 (1933-34); 22, 222 (1934-35); 32, 116 (1947-49); 38, 94 (1947-48)

وفيما يتعلق باستمرار الأخذ به مع التعديلات الضرورية حتى يومنا هذا . انظر : (*Isis* 40, 350 (1949) وهنالك . حوالى تسع طبعات قديمة من النص اللاتينى : (انظر Klebs) ، وأول طبعة للنص اليونانى ظهرت سنة ١٥٢٤ مع النص الذى أعده ايسوبوس[٩٤] Aisopos والترجمة اللاتينية التى أخرجها نيكولو بيروتى الساسوفراتى (١٤٣٠ — ١٤٨٠) Niccolo Perotti of Sassoferrato .

(٢٦) كتاب القانون[٩٥] Lex, Nomos

هذا النص لا يزيد كثيراً عن نص القسم (أقل من صفحتين فى الأصل اليونانى) وهو أحدث منه عهداً . وتأثير الرواقيين فيه ظاهر . وقد عرفه إيروتيانوس Erotianos وهو أقل واقعية من كتاب « القسم » . وأبعد منه عن النهج العملى . وإن كان أعمق فلسفة . وأبلغ عبارة . ويرمى إلى تقرير المقومات التهذيبية التى تميز الطبيب الصالح ، ويشير إلى أن النقابة الطبية

تحولت ، فى الوقت الذى دوّن فيه ، إلى نوع من الأخوة السرية .

وها نحن أولاء نثبت منه النبذة الأولى والنبذتين الأخيرتين :

« الطب أرفع الفنون إطلاقاً ، إلا أن جهل الذين يمارسونه ، ورعونة الذين يتصدون عفواً للحكم على ممارسيه ، قضى عليه بأن أصبح الآن أقل الفنون اعتباراً . والسبب الرئيسى لهذا الخطأ ، فيما يبدو لى ، أن الطب هو الفن الوحيد الذى تخضعه حكوماتنا لعقاب ما ، اللهم إلا فقد الشرف ، وفقد الشرف لا يجرح من يلصق بهم . وما أشبه هؤلاء الرجال بالممثلين الإضافيين فى المآسى . وكما أن لهؤلاء مظهر الممثل ولباسه وقناعه دون أن يكونوا ممثلين ، كذلك كثير من الأطباء إنما هم أطباء بالسمعة ، وقليلون منهم أطباء فى الواقع » . . .

« هذه هى الشروط التى ينبغى أن تتقيد بها ممارسة فن الطب ، والتى يجب علينا تحصيلها قبل أن نرحل من مدينة إلى أخرى ونحرز الشهرة التى تجعل منا أطباء ، لا بالاسم فقط بل بالفعل أيضاً . وقلة التجربة كنز مرصود وذخر ملعون لمن ابتلى به ، غافلا عنه كان أو واعياً . إنها منافية للثقة والمسرة ، وحاضنة للجبن والطيش . والجبن دليل العجز ، والطيش علامة التجرد من حلية الفن . والواقع أن هنالك أمرين : العلم والرأى ، والأول يقود إلى المعرفة والثانى إلى الجهل » .

« على أن الأمور الطاهرة تنكشف فقط للقوم الطاهرين . أما المدنسون فالأولى ألاّ يتعلموها حتى يتم إعدادهم للعلوم الخفية .

والذى لدينا من هذا الكتاب ثمانى طبعات قديمة من الترجمة اللاتينية (راجع Klebs) .

(٢٧) كتاب الطبيب [٩٦] De medico; Peri ietru

لم يذكر القدماء ، أمثال إيروتيانوس وجالينوس ، هذا الكتاب ، إلا أن بينه وبين مجموع المصنفات صلات كثيرة ، والفصل الأول منه لا غير يعالج الواجبات الطبية . فيصف سجية الطبيب الصالح جسداً وروحاً . ويتألف من أربعة عشر فصلا تشرح أصول الطب العملى : كيف تعد العدة للعمليات الجراحية وتجهز الأدوات وتهيأ اللوازم ، كيف تضمد الجروح وتعصب ،

كيف يحجم المريض . وهكذا . . . أما الفصل الأخير فخصص للجراحة العسكرية التى لا تتعلم إلا فى ساحة القتال . والبحث فى هذا الفصل عملى جداً ، وإن كان أساسه التشريحى ضعيفاً . الأمر الذى يشير إلى عهد أبقراطى متقدم .

(٢٨) كتاب اللياقة الطبية[٩٧] De decenti habitu; Peri euschemosynes.

إن ركاكة اللغة فى هذا النص . إلى جانب التكلف فى الأسلوب (استخدام الألفاظ الحوشية) . يشير إلى أنه — نسبياً — متأخر العهد . وفوق ذلك هو مشوب بأفكار رواقية . وبعض فصوله (وجملتها ثمانية عشر فصلا) متكلف وغامض (عن قصد ؟) وجميعها ليس أبقراطياً بالمعنى الصحيح . ومع ذلك كله فالموضوع الذى يعالجه شائق حقاً . يشرح فيه المؤلف كيف ينبغى للطبيب أن يتصرف تصرفاً ينفع المريض ويعود عليه هو بالسمعة الطيبة ، ولا يليق به أن يكون سوفسطائياً ، بل رحيماً ومحباً للحق والحكمة . والطبيب المحب للحكمة شبيه بالآلهة[٩٨] « (ietros gar philosophos isotheos) » ويشدد المؤلف فى الفصل السادس . المشوب — لسوء الحظ — بالغموض والالتباس . على أهمية العامل الدينى . وهذه النبذة فريدة من نوعها فى المجموع كله . فيها تفاصيل عملية كثيرة تتعلق بالملاحظات التى ينبغى إجراؤها فى المستوصف أو بين يدى المريض . كإعداد العقاقير . وما إلى ذلك . ويوجب على الطبيب أن يزور المريض لماما . وأن يقيم — أحياناً — أحد المتمرنين فى مكانه مدة غيابه .

(٢٩) كتاب الوصايا[٩٩] Praecepta; Parangeliai

هذا الكتاب . فيما يبدو ، متأخر التأليف ؛ ربما حتى العصر الرومانى . إن كان يصعد إلى ما قبل جالينوس . وهو حافل بالتعابير الغامضة . ويصدمك منه فوراً ضعف الأسلوب والغلو فى الادعاء . ويغشى الفصلين الأول والثانى منه طابع أبيقورى .

على أن معظمه (الفصول ٣ — ١٣ من ١٤ فصلا) يعالج الواجبات

الطبية ، فيتناول اللياقة أو السلوك الطبي ، وتجنب الشعوذة ، ودمدمة الدجالين . (ولعل الدجالين المتجولين أحكموا فن مخاطبة الجمهور والترويج لبضاعتهم عند وصولهم إلى قرية ما) . ويكوّن الفصلان الأول والثانى مدخلا إلى الموضوع مؤداه أن الفن الطبي ينبغى أن يقوم على أساس الملاحظة لا « الافتراض » . أما الفصل الأخير فمجموعة من العبارات المفككة ، ولعلها ملاحظات لم يتيسر للمؤلف أن يستكمل صياغتها .

وقد أثبتنا الفصل السادس من « كتاب الوصايا » هذا بنصه الكامل فى الفصل الثالث عشر.

الرسائل :

(٣٠) الرسائل المنحولة

يشتمل المجلد التاسع من طبعة ليتريه (ص ٣٠٨ — ٤٦٦) على رسائل ، ووثائق أخرى ، مشكوك فى صحتها ، وإن كانت شائقة تلذ للباحث المعنى بنشأة الأسطورة الأبقراطية وتطورها . ويشير بعضها ضمناً إلى أن أبقراط أنقذ أثينا وبلاد اليونان من وباء الطاعون . ولوكان هذا صحيحاً لعرف عن غير هذا الطريق. ومن بين كتاب هذه الرسائل الملك العظيم ارتا كسركس Artaxerxes ، وهستانس Hystanes ، حاكم هيليسبونت Hellespont الفارسى ، ومواطنو جزيرة كوس وأبديرا Abdera ، وتسالوس بن أبقراط . والملك ديمتريوس Demetrios . وهنالك رسائل مسهبة ، تبادلها أبقراط وديمتريوس تدور حول ما نسب إلى الثانى من خبل مزعوم .

ومن الجدير بالذكر أن علماء العصر القديم رغبوا فى أن يستكملوا حكاية أعلام الرجال (Opera Omnia) بالرسائل «الموثوقة» (مثل أفلاطون وأرسطو) وإذ لم تتيسر لهم الوثائق التى يسهل على الناشر الحديث جمعها أجازوا لأنفسهم أن « يختلقوا » ما افتقروا إليه منها. وعلى كل فإن كتابة رسالة معقولة، أو معقولة بالنسبة لهم ، ليس أشنع كثيراً من كتابة « الخطب » ، على ما جرى عليه قدماء

المؤرخين ، وفيهم أمثال ثوكيديديس ممن اشتهروا بالصدق .

يصعد تاريخ طبع الترجمات اللاتينية لبعض الرسائل إلى سنة ١٤٨٧ و ١٤٩٢ ((Klebs 337)) مضموماً إليها رسائل ديوجينيس السينوبى Diogenes of Sinope مؤسس المذهب الكلبى (حوالى ٤٤٠ — ٣٢٥) .

تحقق القارئ الذى أعانه صبره الواسع على مرافقتى فى تفحص أهم المؤلفات الأبقراطية مما امتازت به محتوياتها من غزارة المادة وفرط التعقيد . وقد دون معظمها فى القرن الخامس ، وقليل منها بعد ذلك بنحو قرن ، أو أكثر ، ومع ذلك فهى تحتفظ بتقليد من أنبل ما خلفه تاريخ الجنس البشرى .

الآثار الأبقراطية فى العصور الوسطى :

يمكن أن تقاس عظمة الفرد بمقدار ما يمتد إليه ظله خلال العصور اللاحقة . وينبغى ، لكى ندرك عظمة أبقراط ، أن نستشعر التأثير الذى فرضه على من تلاه . وسنحاول أن نسرد الوقائع بترتيبها التاريخى ، وبحكم هذا الترتيب يظهر « أبقراط » فى النصف الثانى من القرن الخامس ، وعلينا أن نستيقن بأن ما تم على يده — كائناً من كان أبقراط — فى ذلك العهد ، لم يكن إلا بدء حكاية طويلة . ولو قدر لهذه الحكاية أن تكتب لصح أن يكون عنوانها «حياة أبقراط من القرن الخامس إلى اليوم » ، ولو دونت بشىء من الاستيفاء لملأت كتاباً ضخماً . إن عظماء الرجال خالدون حقاً ، وقد يكونون بعد الموت أكثر حياة منهم قبل ذلك[١٠٠] .

إن درس الآثار الأبقراطية أمر فريد فى تعقيده . ذلك لأن المصنفات الأبقراطية لا تؤلف كلا موحداً متماسكاً مثل مؤلفات هيرودوت وثيوكيديدس ، أو الإلياذة والأوديسا . وهذه المصنفات الكثيرة ، الصحيح منها والمنحول ، لا تخضع جميعها لقانون صارم كما هى الحال فى الكتاب المقدس . وعلى الباحث أن يتدبر خبر كل نبذة ، أو كل فئة من النبذ ، لا سيما والباعث على الجمع بينها عناية القدماء من أمناء المكتبات ، والنساخ والناشرين ، فضلا

عن مناهج المدارس الطبية . مثال ذلك أن كتاب الحكم الطبية Aphorismi والإنذار المرضى Prognosticum ، وكتاب التدبير الصحى فى الأمراض الحادة Regimen acutorum (De diaeta in acutis) كثيراً ما جاءت مضمومة فى مجلد واحد، كما حدث فى مدرسة مونبلييه Montpellier سنة ١٣٠٩ و١٣٤٠[١٠١] .

وها نحن أولاء — على سبيل المثال — نرسم الخطط الكبرى لتاريخ كتاب واحد منها ، هو كتاب الحكم الطبية ، وهو أشهرها على الإطلاق .

عقب جالينوس على نحو سبعة عشر من المصنفات الأبقراطية[١٠٢] بينها كتاب الحكم الطبية . وقد ضم شرح جالينوس إلى المتن الأبقراطى فى هذا الكتاب كما حدث فى كثير سواه ، وعمل على تأييد ما جاء فيه. وآثار جالينوس فى أوائل العصر الوسيط معروفة جيداً ، لحسن الحظ ، ويعود الفضل فى ذلك إلى بحث كتبه أحد كبار لغوى العصور الوسطى هو حنين بن إسحق العبادى (النصف الثانى من القرن التاسع) المسمى باللاتينية يوانيتيوس Joannitius وقد عاش أولا فى جنديسابور ثم فى بغداد وتوفى سنة ٨٧٧. وكان نسطوريًّا ، وطبيباً ومترجماً، اشتغل بالنقل من اليونانية إلى السريانية وإلى العربية ، وقام هو نفسه بترجمة الكثير من المؤلفات العلمية الخالدة التى وضعها أبقراط وأفلاطون وأرسطو وديوسكوريدس وبطلميوس وجالينوس ، وتولى إدارة معهد للمترجمين دربهم فيه تدريباً رائعاً ، أما بحثه الذى أشرت إليه منذ قليل فهو عرض مجمل للترجمة السريانية والعربية لمؤلفات جالينوس ، يقدر فيه قيمة هاتين الترجمتين النسبية ، ولا يتردد فى أن ينتقد بشدة بعض ترجماته الخاصة[١٠٣] .

وإليك ما أورده عن كتاب الحكم الطبية :

شرح أبقراط لكتاب الحكم الطبية (تفسير لكتاب الفصول) . يقسم هذا الكتاب إلى سبعة أقسام[١٠٤] . وقد ترجمه أيوب (إلى السريانية) ترجمة سقيمة . ثم حاول جبريل بن بختيشوع أن ينقح هذه الترجمة فجاءت أسوأ مما كانت . ولهذا قارنها بالنص اليونانى وصححها بحيث جعلت منها ترجمة(سريانية) جديدة ، وضممت إليها نص ألفاظ أبقراط نفسها . وطلب إلى أحمد بن محمد المدبر أن أترجم

له هذا الكتاب . فترجمت قسما منه إلى العربية . ثم أشار على ألا أبدأ ترجمة قسم آخر قبل أن أقرأ عليه القسم الذى تمت ترجمته . إلا أن أموراً أخرى شغلته فحال ذلك دون استمرارى فى الترجمة . ولما كان محمد بن موسى يوالى فحص كل قسم من الأقسام . فقد رجانى أن أستمر فى عملى . وهكذا أنجزت ترجمة الكتاب كله (١٠٥) .

ولا يشير حنين إلى ترجمة أخرى لهذا الكتاب وضعها سرجيوس الراسعينى « الرأس عينى » Sergios of Resaina (النصف الأول من القرن السادس) وهو من أقدم وأعظم المترجمين الذين اشتغلوا بالنقل من اليونانية إلى السريانية ، وقد درس فى الإسكندرية ، ثم قضى نحبه فى القسطنطينية سنة ٣٤٦ . ولم يكن نسطوريًّا كحنين . بل يعقوبيًّا من القائلين بالطبيعة الواحدة (١٠٦) . ولعل الذى ترجمه سرجيوس هو كتاب الحكم الطبية (لاشرح جالينوس له) ، لكن ذلك غير ثابت (١٠٧) .

ومما يدعو إلى الاستغراب أنى لم أقف على بادرة اهتمام بهذا الكتاب طيلة المدة بين وفاة حنين سنة ٨٧٧ وحوالى سنة ١٠٢٥ . وهى حقبة تقارب قرناً ونصفا ، وفى منتصف القرن الحادى عشر ظهر له شرحان على الأقل . وضع أحدهما على بن رضوان المصرى (النصف الأول من القرن الحادى عشر) . وأخرج الثانى عبد الرحمن بن على بن أبى صادق الفارسى (١٠٨) . وقد توفى كلاهما فى حدود سنة ١٠٦٧ .

وبعد ذلك بقرن وضع يوسف بن حاسداى الإسبانى Yusuf Ibn Hasdai (النصف الأول من القرن الثانى عشر) شرحاً عربياً آخر أسماه « شرح الفصول » . وتكاثرت بعد ذلك الترجمات والشروح حتى لنجد من المناسب أن نبحث أمرها كل نصف قرن .

النصف الثانى من القرن الثانى عشر . ومن أبرز من فيه إسبانى آخر هو اليهودى ابن ميمون Maimonides . وأهم مؤلفاته الطبية وأشهرها مجموعة أخرى من الحكم الطبية عرفت « بفصول موسى » تكاد تكون مستمدة من جالينوس وحده (١٠٩) . أما شرحه لحكم أبقراط الطبية فكتاب آخر أقل شهرة من ذلك . ومع أن « فصول

موسى » مستمدة من جالينوس فالمرجح أنه يشتمل على ملاحظات متفرقة تتصل مباشرة أو بالواسطة بحكم أبقراط .

وقد قضى ابن حاسداى وابن ميمون كلاهما الشطر الأكمل من حياتهما فى مصر لا فى إسبانيا . وهناك إسبانى ثالث ، قطلانى على التحديد ، وهو يوسف بن مائر بن زبارة Joseph ben Meir ibn Zabara (النصف الثانى من القرن الثانى عشر) حصل علومه فى نربونه . وأقام على الأغلب فى مسقط رأسه برشلونه ، ولعله مؤلف تلك الرسالة التهكمية لكتاب الحكم التى جاءت بالعبرية تحت عنوان : مومرى هاروفائيم Momeriha-rofe'im

وفى هذه الأثناء قام بورجوندیو البيزى Burgundio of Pisa (النصف الثانى من القرن الثانى عشر) بترجمة كتاب الحكم الطبية من اليونانية إلى اللاتينية رأساً ، ثم عمد موروس السالرنى Maurus of Salerno عالم التشريح (النصف الثانى من القرن الثانى عشر) إلى وضع شرح له باللاتينية . ولما كان موروس قد توفى بعد بورجوندیو بنحو عشرين سنة (١٢١٤ فى مقابل ١٩١٣) ، فمن المحتمل أن يكون قد اعتمد ترجمة بورجوندیو بدلا من الترجمات السابقة التى نقلت عن العربية . على أن ذلك لا يتضح إلا بدرس أعمق مما تيسر لى حتى[١١٠] الآن .

النصف الأول من القرن الثالث عشر: إن ملاحظاتى على إنتاج النصف الأول من هذا القرن محصورة فيما وضع بالعربية فى مدينة دمشق . أو على الأقل . فيما وضعه أطباء عاشوا فى هذه المدينة .

لدينا ثلاثة شروح عربية لكتاب الحكم الطبية . وضع اثنين منها طبيبان مسلمان هما ابن الدخوار المتوفى فى دمشق سنة ١٢٣٠[١١١] . وابن اللبودى الحلبى (النصف الأول من القرن الثالث عشر) الذى حصل علومه فى دمشق وتوفى بعد سنة ١٢٦٧ . ووضع الثالث طبيب سامرى هو صدقة ابن مناجا الدمشقى (النصف الأول من القرن الثالث عشر) . وقد جعل عنوان كتابه « شرح فصول أبقراط » .

النصف الثانى من القرن الثالث عشر: وفى النصف الثانى من هذا القرن لفت كتاب الحكم هذا أنظار كل طبيب عاش غربى بلاد الهند ونوقشت الحكم بالعربية والعبرية واللاتينية. وكتب الشروح العربية طبيبان شرقيان الأول مسيحى اسمه أبو الفرج ومعروف باسم برهبرايوس Barhebraeus[١١٢] (النصف الثانى من القرن الثالث عشر)، والثانى مسلم هو ابن النفيس (النصف الثانى من القرن الثالث عشر).

ووضع الشروح اللاتينية برتغالى هو بطرس الإسبانى Peter of Spain من لشبونة (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) الذى توفى تحت اسم البابا حنا الحادى والعشرين Pope John XXI. فى سنة ١٢٧٧، وإيطالى هو تاديو الديروتى الفلورنسى Taddeo Alderotti of Florence. (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) الذى عمر حتى سنة ١٣٠٣.

ولكتاب الحكم خمس ترجمات عبرية[١١٣] على الأقل، أروعها هى تلك التى أتمها شمطوب بن إسحق الطرطوشى Shem-tob ben Isaac of Tortosa (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) فى تراسكون سنة ١٢٦٧، وهذا يعطينا مثالا صالحاً على انتشار الأثر الأدبى وتنقله. فنص شمطوب العبرى يشتمل على شروح لبلاديوس Palladios الطبيب السوفسطائى (النصف الأول من القرن الخامس) وهى شروح غير معروفة فى الأصل اليونانى.. أما موسى بن طيبون المرسيلى (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) Moses ibn Tibbon of Marseille وهو من أشهر تراجمة العصر الوسيط، فقد ترجم شرح ابن ميمون من العربية إلى العبرية فى سنة ١٢٥٧ أو ١٢٦٧. وترجم ناتان هامآتى السنتى Nathan ha-me'a ti of Cento (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) الذى ازدهر فى روما حوالى ١٢٧٩ — ١٢٨٣ كتاب الحكم من العربية إلى العبرية مع شرح جالينوس.

النصف الأول من القرن الرابع عشر: وآخر الشروح العربية التى وصل إليها علمى تصعد إلى هذا العصر. ونحن مدينون بذلك إلى طبيبين تركيين

— على ما فى ذلك من الغرابة — هما عبد الله ابن عبد العزيز السيواسى (النصف الأول من القرن الرابع عشر) وأحمد بن محمد الكيلانى (النصف الأول من القرن الرابع عشر) . فشرح عبد الله الذى يصعد إلى أول هذا القرن عنوانه : « عمدة الفحول فى شرح الفصول » . وأما شرح أحمد فقد وضع بعد وضع بعد ذلك بقليل . إذ أهدى إلى جانى بك محمود أمير العشيرة الزرقاء Blue Horde فى غربى القبجاق بين ١٣٤٠ — ١٣٥٧ .

وازداد إخراج الطبعات والشروح اللاتينية ، لكتاب الحكم بازدياد الحاجة إليه فى المدارس الطبية ، لا سيما أهم هذه المدارس فى ذلك العهد وهى مدرسة مونبلييه فى أرجون . وكان أحد الكتب التى لا بد لطلاب الطب أن يستوعبوا مادتها (١١٤) . ولذلك وصلت إلينا شروح لاتينية عديدة له وضع أحدها برثولوميو البرجى Bartholomew of Bruges (النصف الأول من القرن الرابع عشر) الذى تخرج فى مونبلييه بشهادة M.D. . قبل سنة ١٣١٥ ، ووضع شرحاً آخر برنجر التومباوى Berenger of Thumba (النصف الأول من القرن الرابع عشر) الذى كان فى مونبلييه سنة ١٣٣٢ ، وكذلك جيرالد السولى Gerald de Solo (النصف الأول من القرن الرابع عشر) الذى وضع شرحاً ثالثاً (فيما يظن) وكان أستاذاً هناك ، وتوفى حوالى سنة ١٣٦٠ .

وكانت مدرسة بولونيا Bologna تدانى فى أهميتها منافستها الأرجونية ، ولدينا شرحان وضعهما أستاذان من أساتذتها هما نيكولو برتوكشيو Niccolo Bertuccio (النصف الأول من القرن الرابع عشر) والبرتو الزنكارى Alberto de' Zancari (النصف الأول من القرن الرابع عشر) . وقد كان شرح البرتو بمثابة نشرة جديدة ، إذ جاءت فيها الحكم ، لأول مرة ، منسقة تنسيقاً منطقياً :

Anforismi Ypocratis per ordinem collecti.

النصف الثانى من القرن الرابع عشر : يبدو أن نشاط الشراح اليهود أخذ فى الخمود فى هذه الفترة ، شأن منافسيهم العرب ، حتى إنه ليتعذر على أن أشير إلى أكثر من شارح يهودى واحد هو إبراهيم كابرت القطلانى Abraham Cabret وإرضاء لحب الاستطلاع نشير هنا إلى خلاصة «منطق أرسطو» Aristotelian Organon .

« منحة جودا » الذى أفرغه الفيلسوف اليهودى والعالم الرياضى اليونانى يوسف بن موسى الكلتى Joseph ben Moses ha-Kilti (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) فى قالب حكمى ، فكان بصفة جازمة تقريباً — تقليداً متعمداً أو غير متعمد — لكتاب أبقراط ، وازدهر يوسف هذا فى أواخر القرن الرابع عشر أو أوائل الخامس عشر .

ووضع مارتن دى سانت جيلس Martin de Saint Gilles (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) الذى ظهر فى أفينيون Avignon سنة ١٣٦٢ ترجمة فرنسية لكتاب الحكم الطبية مذيلا بشرح جالينوس[١١٥] . وهذه الترجمة تفتح أمامنا تقليداً أو دوراً جديداً يدعونا لأن نستكشف جميع لغات أوروبا الإقليمية التى نقل إليها كتاب الحكم فيما تقدم أو تأخر من الزمان . إلا أن هذا يبعد بنا عن نطاق بحثنا . لأن شيئاً من هذا النشر الاقليمى لا يدخل فى حساب مؤرخ العلم العام . وإن كان مما ترغب فيه فئة معينة رغبة شديدة . مثال ذلك أن حكاية الترجمات البولونية إنما تعنى طلاب العلم والأدب البولونى .

أما الطبقة المثقفة فى أوربا الغربية فلم تكن بحاجة إلى الترجمات الإقليمية بل نبذتها ، وكان النص اليونانى مفضلا لديها وبقى كذلك قروناً عديدة .

ولقد وضع مارسيجليو السانكتا صوفى Marsiglio of Sancta Sophia (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) الأستاذ فى جامعة بادوا ، كتاباً هو « أسئلة حول كتاب الحكم » Quaestiones in aphorismos طبع فى بادوا سنة ١٤٨٥ وأعيد طبعه عدة مرات بعد ذلك[١١٦] . وتوفى مارسيجليو هذا حوالى سنة ١٤٠٥ .

وهنا نصل إلى القرن الخامس عشر الذى لم يتسن لى أن أستوفى دراسته . على أن ذلك لا يمنع من الإشارة إلى شرحين ظهرا فى أوائل هذا القرن ، الأول شرح جياكومو دللاطورى Giacomo della Torre[١١٧] والثانى شرح أوجو بنزى Ugo Benzi ، وكلاهما من أبناء القرن الرابع عشر . وكان لشرحيهما تأثير بالغ . وأعيد طبعهما مراراً عديدة .

إن شرح جياكومو دللاطورى والمعروف أيضاً بيعقوب الفورلى Jacobo da Forli

FINIVNT
Sententiæ Hippocratis Et Item Commentationes
Galeni In Eas Ipsas Sententias Editæ Laurentio
Laurentiano Florentino Interprete Viro Cla
rissimo Quas Antonius Miscominus
Ex Archetypo Laurentii Diligenter
Auscultauit & Formulis Imprimi Curauit.
FLORENTIAE
Anno Salutis .M.CCCCLXXXXIIII.
Decimoseptimo. kal. Nouembris

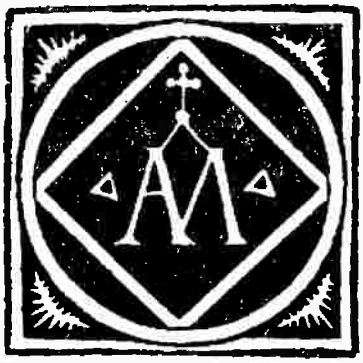

الشكل ٧٤ – كتاب الحكم الطبية لأبقراط أول طبعة مستقلة وهى ترجمة لاتينية لكتاب الحكم وشروح جالينوس بعناية لورنتيوس لورنتيانوس الفلورنسى Laurentius Laurentianus of Florence وقف على طبعه أنطونيو مسكوميني Antonio Miscomini فى فلورنسا سنة ١٤٩٤ . وهذا المجلد مؤلف من ٩٨ صفحة ، وهو خال من صفحة العنوان ، وقد نسخنا الشعار وأثبتناه أعلاه . (بإذن المتحف البريطانى) .

(حوالى ١٣٥٠ و ١٤١٣) طبع أولا فى البندقية سنة ١٤٧٣ . ولدينا منه ست طبعات قديمة[١١٨] ، أما شرح أوجوبنزى السيانى Ugo Benzi of Siena (حوالى ١٣٧٠ – ١٤٣٩) فقد طبع للمرة الأولى فى فرارة Ferrara سنة ١٤٩٣ . وأعيد طبعه مرة واحدة فقط قبل القرن السادس عشر[١١٩] .

وقد طبع النص اللاتينى لكتاب الحكم مستقلا عن شروح مارسيجليو السنكتاصوفى ، وجياكومودللاطورى ، وأوجوبنزى ثمانى مرات على الأقل قبل القرن السادس عشر : ست مرات فى مجموع ارتيسلا Articella من ١٤٧٦ إلى ١٥٠٠ ، ومرتين سنة ١٤٩٤ و ١٤٩٦ على التوالى (الشكل ٧٤)[١٢٠]

أما الطبعات المتأخرة التى ظهرت فى لغات كثيرة فلا تقع تحت حصر . وفى فهرس ليتريه[١٢١] جداول طويلة جداً تضم أسماءها وإن كانت غير كاملة . وكذلك فى فهارس المتحف البريطانى والمكتبة الأهلية فى باريس .

وروايتنا لأخبار كتاب الحكم الطبية هى أيضاً ناقصة جداً ، وذلك لأسباب كثيرة ، أولها أننا لم نتمكن من أن نتحدث إلا عن شراح أبقراط الذين عرفنا يقيناً أنهم ترجموا حكم أبقراط أو شرحوها ، وعليه فالترجمات والشروح التى ورد ذكرها ينبغى أن تعتبر نماذج من مجموعة كبيرة ليس إلا . وعامل آخر أعمق من عوامل الخطأ . هو أن المفسرين المغمورين الذين لم يتعمدوا الشرح كانوا فى الغالب ، أكثر عدداً من الشراح المعروفين الذين تجردوا لهذا العمل . وبعبارة أخرى مما عُدَّ الكثير من الشروح وشروح الشروح ، أقرب إلى الأصل من الكتب التى اعتبرت مؤلفات مستقلة . وهذا يصدق فى جميع العصور . فإن مخلفات فرد لا يمكن أن تستخرج من الكتب التى وضعت خصيصاً لبحثه ، حتى ولا من كتب المؤلفين الذين استندوا إلى مقتبسات منه . ولا يحرص المنتحلون وحدهم ، بل أصحاب العقول المحدودة أيضاً بوجه عام ، على إخفاء مصادر علمهم ، شأنهم فى ذلك شأن نهر النيل فى منابعه ، وكلما كثرت سرقاتهم قل ميلهم إلى الاعتراف بما هم مدينون به لغيرهم .

إن بحثاً شبيهاً بهذا خليق بأن يكتب حول تاريخ كتب أبقراط الأخرى ، بل وحول تاريخ أى كتاب علمى قديم . وقد يتاح للباحث أن يكشف فيما بينها فروقاً كثيرة فى مدى الشهرة وسعة الانتشار . كان « كتاب الحكم » من أشهر المؤلفات الأبقراطية ، أما المؤلفات الأخرى ، التى ضاعت قديماً أو أهملت ، فهى على عكس ذلك . وطابع القصة فى كل منها واحد على ما بين أسماء أبطالها من اختلاف شديد .

وقد التقت فى تاريخ هذه المؤلفات عناصر متنوعة تعود إلى اعتبارات عنصرية وجنسية ودينية مختلفة . أما سبيلها اللغوى الرئيسى فكان اللغات الإقليمية : اليونانية ، فالسريانية ، فالعربية ، فاللاتينية فالعبرية ، وأما سبيلها الدينى فكان الوثنية فالإسلام ، فالمسيحية ، فاليهودية .

تعليقات

(١) إميل ليتريه Emile Littre (١٨٠١ – ١٨٨١) : Oeuvres completes d'Hippocrate « مجموع مؤلفات أبقراط » (١٠ مجلدات ، باريس ١٨٣٨ – ١٨٦١) ، انظر ليون جينيه Leon Guinet : « إميل ليتريه » فى مجلة ايزيس Isis المجلد الثامن ص ٧٧ – ١٠٢ (١٩٢٦) مع رسم له : وعلى الصفحة الـ ٨٧ جدول بما يشتمل عليه كل مجلد من مجلدات طبعة ليترية .

(٢) نشر جونز (Jones) المجلدين الأول والثانى (١٩٢٣) (انظر مجلة ايزيس *Isis* المجلد السادس ص ٤٧ (١٩٢٣ – ١٩٢٤) والمجلد الرابع (١٩٣١) . ونشر ويثنجتون Withington المصنفات الجراحية فى المجلد الثالث (١٩٢٧) . انظر (مجلة ايزيس *Isis* ، المجلد الحادى عشر ص ٤٠٦ (١٩٢٨) .

(٣) معجم يونانى انجليزى . تأليف هنرى جورج لدل Henry George Liddell (١٨١١ – ١٨٩٨) ؛ وروبرت سكوت Robert Scott (١٨١١ – ١٨٨٧) . وهنالك طبعة جديدة منقحة بإشراف السر هنرى ستوارت جونز Henry Stuart Jones 2160 pp.; Oxford: Clarendon Press, 1925-1940). ولأغراض معجمية, عمد ويثنجتون إلى قراءة كل ما بقى من أدب اليونان الطبى ؟ انظر مجلة ايزيس *Isis* ، المجلد الثامن ص ٢٠٠ – ٢٠٢ (١٩٢٦) .

(٤) هذا بخلاف النص الأدبى الخالص الذى يقدر حق قدره ويترك على حاله نثراً كان أم شعراً .

(٥) قابل هذا باستخدام شعراء الإسبان ، فى العصر الوسيط ، للهجة الغاليسية – البرتغالية المتقدمة (Introduction) المجلد الثالث ، ص ٣٣٧ ، ٣٤٤) ، وكذلك باستخدام أطباء الفرنسيين ، فى القرن السابع عشر ، اللغة اللاتينية ، وورود الألفاظ الإنجليزية – النورماندية فى لغة القانون حتى يومنا هذا .

(٦) يقول و . هـ . س . جونز W.H.S. Jones فى كتاب أبقراط Hippocrates (مكتبة لويب للآداب القديمة) ، المجلد الثانى ، ص ٥٤ من المقدمة « لا مطمع لنا فى إعادة النص على صورة خير من صوره الجيدة ، فى عهد جالينوس ، وحتى هذا غير ميسور أحياناً . فمن العبث إذن أن نحاول إعادة النص إلى اللهجة الخاصة التى كتب بها المؤلفون . والراجح أنهم لم يكتبوا جميعاً بلغة أيونية واحدة لأن الأيونية ، فيما يتعلق بالطب والعلم إجمالا ، كانت لغة أدبية لا لهجة تخاطب . ومن الغلو فى العبث أن نزعم أنا نعرف اليوم مثلا كيف كتب المؤلف هذه اللفظة : tois أم toisi أم toisin .

(٧) تناجرا Tanagra موضع بويوتيا Bœotia اشتهر بنشاط الأعمال والديكة المقاتلة ، والتماثيل الفخارية الصغيرة أيضاً التى اكتشفت أثناء الحفريات التى أجريت فى مقابرها سنة ١٨٧٣ وما بعدها .

(٨) لم أعرض فى كتابى المقدمة (Introduction) لباكشيوس ولا لفيلينوس لضياع مؤلفاتهما .

وللابهام الذى يشوب شخصيتهما . عن باكشيوس انظر M. Wellmann, Pauly-Wissowa, vol. 4 (1896) p. 2790 وعن فيلينوس انظر Deller, ibid. vol. 38 '1938' pp. 2193-94 وكذلك K. Deichgraber *Die griechische Empirikerschule* (Berlin, 1930) وقد نظم جونر جدولا جزيل الفائدة جمع فيه المؤلفات الأبقراطية التى عرفها باكشيوس وسمسوس وارويتيانوس على التوالى . وذلك فى كتاب أبقراط Hippocrates (مكتبة لويب للآداب القديمة) المجلد الأول ص ٣٨ – ٣٩ من المقدمة .

(٩) لم يكن سلسوس شارحاً ، ولكن بحثه الطبى باللاتينية De re Medicina حافل بالذكريات الأبقراطية . انظر الجدول المقارن المشتمل على النبذ المتقابلة عند ابقراط وسلسوس فى طبعة و . ج . سبنسر (W.G. Spencer) (مكتبة لويب للآداب القديمة)، المجلد الثالث (١٩٣٨) ، ص ٦٢٤ – ٦٢٧ . وقد ظهر كتاب سلسوس مطبوعاً قبل مؤلفات أبقراط وجالينوس وذلك سنة ١٤٧٨ .

(١٠) ألف أروتيانوس قاموساً أبقراطياً قيماً للغاية . وهنالك تفاسير أخرى جمعها هيرودوت . ويستطاع جمع أمثالها من شروح جالينوس ، ونشر فرانز هذه التفاسير : (J.G.F. Franz) Erotiani Galeni et Herodoti glossaria in Hippocratem ex recensione Henrici Stephani, Leipzig. 1780. وأعاد ارنست ناخمانسون نشرها نشراً حديثاً : Ernest Nachmanson, Erotaianos Glossary. Uppsala, 1918.

(١١) هل كتاب Peri ton gnesion Hippocratis syngrammaton مفقود حقاً ؟ ألا تشتمل عليه طبعة كون (Kuhn) ؟ فقد ورد فى فهرس حنين تحت رقم ١٠٤ . انظر طبعة برجستراسر Bergstrasser (١٩٢٥) أو مقال ماير هوف Meyerhof فى مجلة ايزيس *Isis* ، المجلد الثامن ، ص ٦٩٩ (١٩٢٦) .

(١٢) أبو الحسن على بن يحيى (توفى ٨٨٨) هو ابن يحيى المنجم . وكان يحيى هذا قد اعتنق الإسلام والتحق بخدمة الخليفة المأمون . وكان ابنه على كاتباً للخليفة المتوكل وجماعة للكتب شديد الرغبة فى العلم ، نقل إلى العربية الكثير من كتب جالينوس بطلب من المتوكل أو تحت رعايته . انظر مجلة ايزيس (*Isis*) المجلد الثامن ، ص ٧١٤ (١٩٢٦) . أما عيسى بن يحيى فيظن أنه أخوه .

(١٣) المقدمة (Introduction) المجلد الأول ، ص ٤٨٠ . ينبغى إجراء تصحيحين فى هذه النبذة : الأول ، أن يحيى النحوى (النصف الأول من القرن السابع) هو نفسه جان فيلوبونوس (النصف الأول من القرن السادس، والثانى، أن التاريخ الثانى هو الصحيح . ثم إن المؤلفات الطبية المنسوبة إلى يحيى هذا منحولة وتعيين تاريخ المجموعة البيزنطية لمؤلفات أبقراط أمر متعذر ، إذ ليس بين يدينا مخطوط قديم لها ، ولعل أقدم المجموعات البيزنطية نسخة عن مجموعة الإسكندرية لا أكثر .

(١٤) نشر أ . ل . هايبرج I.L.Heiberg هذه القوائم تحت عنوان "Hippocratis indices librorum" فى المجلد الأول من مجموع الطب اليونانى Corpus medicorum graecorum المجلد الأول (١٩٢٧) القسم الأول ص ١ – ٣ [مجلة ايزيس (*Isis*) المجلد الحادى عشر ، ص ١٥٤ (١٩٢٨)].

(١٥) كلبس Klebs ١١٦ ، هذه إشارة إلى رقم ١١٦ فى جدول المطبوعات القديمة فى العلوم والطب "Incunabula scientifica et medica" الذى نشره ارنلد ك . كلبس فى مجلة أوزيريس (Osiris) المجلد الرابع ، ص ١ – ٣٥٩ (١٩٣٨) . وهى قائمة دقيقة التنسيق لجميع الكتب العلمية والطبية التى طبعت فى القرن الخامس عشر . وسنعتمد هذه الإشارة المقتضبة فيما يلى دون إلحاقها بشرح ما .

(١٦) إن عدد المؤلفات من المطبوعات القديمة المنسوبة إلى كل منهم هى كما يلى : ١٥١ لألبير الكبير (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) ، ٩٨ لأرسطو ، و ٥٢ لأبقراط . وهذه الأرقام تشتمل على الكتب الصحيحة والمنحولة معاً . انظر مجلة أوزيريس (Osiris) ، المجلد الخامس ص ١٨٣ – ١٨٦ (١٩٣٨) .

(١٧) انظر مقال ج. سارتون (G. Sarton) فى Singer Festschrift J.A. Van der Linden (أكسفورد ، مطبعة كلارندون ، ١٩٥٢) . إن الطبعات القديمة وفيها طبعة فان در لندن ؟ (١٦٦٥) وكذلك – فيما يظن – بعض الطبعات المتأخرة ، لم توضع لعلماء اللغة ، ولا للمؤرخين ، بل للأطباء وتلامذة الطب .

(١٨) راجع مجلة ايزيس (*Isis*) المجلد الحادى عشر ، ص ١٥٤ (١٩٢٨) .

(١٩) أعرف ما تكون المصنفات الأبقراطية بعناوينها اللاتينية ، فقد غدت هذه العناوين ذات رواج عالمى . وقد أشرنا عند الكلام عن كل منها إلى طبعة ليتريه ، ولويب ، والطبعة اليونانية اللاتينية corpus medicorum graecorum حيث تيسر لنا ذلك . وعلى الباحث عند درس أى واحد من هذه المصنفات أن يلتفت بنوع خاص إلى الشرح الجالينى ، فإذا كان هذا الشرح من وضع جالينوس نفسه ، ونقل إلينا ، أمكن الوقوف على نصه فى الطبعة اليونانية اللاتينية التى أخرجها كارل جوتلوب كون Karl Gottlob Kuhn الموسومة ب Galeni opera omnia (عشرون مجلداً ، ليبتزج ١٨٢١ – ١٨٣٣) ؛ والمجلد الأخير هو الفهرس العام للكتاب .

(٢٠) انظر طبعة ليتريه . المجلد السادس ، ص ٣٥٠ – ٣٩٧ ، وطبعة لويب ، المجلد الثانى ص ١٢٩ – ١٨٣ .

(٢١) التماساً للسهولة سأشير فى تضاعيف هذه الملاحظات باسم « أبقراط » إلى المؤلف أيا كان ، إذ تتعذر إعادة البحث فى هذا الموضوع عند الكلام عن كل واحد من تلك المصنفات .

(٢٢) ترد آراء من هذا النوع فى الفصل الحادى والعشرين من الكتاب المذكور ، وكذلك فى الفصل الثانى والعشرين من كتاب « الأهوية والأمواه والأمكنة » فى عرض الكلام عن المرض السيثيانى Scythian disease ، والتخنث عند فئة من الرجال . و « لكن الحق ، كما ذكرت سابقاً ، أن تلك العلل ليست أكثر قدسية ولا أقل من غيرها من العلل ، بل جميعها وكل واحدة منها طبيعية » . وقد يستفاد من هذا القول أن مؤلف (المرض المقدس) هو نفسه مؤلف « الأهوية والأمواه والأمكنة » .

(٢٣) أولريخ فون ويلاموفتز – مولندورف Ulrich von Wilamowitz-Moellendorff (١٨٤٨ – ١٩٣١) ، مؤلف Griechisches Lesebuch (مجلدان فى أربعة أجزاء ،

برلين ١٩٠٢ – ١٩٠٦) ، المجلد الأول ، ص ٢٦٩ – ٢٧٧ ، المجلد الثانى ص ١٦٨ – ١٧٢ . انظر فيما يتعلق بجوزيف بيدز Joseph Bidez (١٨٦٧ – ١٩٤٥) مجلة أوزيريس Osiris ، المجلد السادس (١٩٣٩) . وقد عالج أوسوى تمكن Oswei Temkin هذا الموضوع معالجة أوفى فى كتابه « الانهيار العصبى » The falling sickness. A history of epilepsy from the Greeks to the beginnings of modern neurology. (359 pp.; Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1945) (*Isis*) 36, 275-278 (1946)

(٢٤) ليتريه (Littre) ، المجلد الثانى ، ص ١١٠ – ١٩١ ، لويب ، المجلد الثانى ، ص ١ – ٥٦ .

(٢٥) ليتريه Littre ، المجلد الثانى ، ص ٢٢٤ – ٣٧٧ ؛ لويب ، المجلد الثانى ، ص ٥٩ – ١٢٥ ،

(٢٦) Chap. XXIII.

(٢٧) Chapter V.

(٢٨) Littré, vol. 9, pp. 1-75.

(٢٩) *Introduction*, vol. 2, p. 76.

(٣٠) Littré, vol. 2, pp. 598-717; 24-149; Loeb, vol. 1, pp. 141-287.

(٣١) Chap. XII.

(٣٢) Chap. XIV.

(٣٣) Littré, vol. 5, pp. 3-429.

(٣٤) *Epidemics* VI, 3, 18.

(٣٥) *Epidemics* V, 56.

(٣٦) *Epidemics* VII, 112.

(٣٧) Karl Deichgraber, "Die Epidemien und das Corpus Hippocraticum. Voruntersuchungen zu einer Geschichte der Koischen Arzteschule," Abhandl. Preuss. Akad., Philos. Kl., nr. 3 (172 pp., quarto; Berlin, 1933).

(٣٨) تقع بيرنتوس Perinthos على شاطئ مرمرة الشمالى فى مقاطعة تراقيا قرب سليمبريا Selymbria . وقد كانت فى القرن الرابع تفوق بيزنطة خطورة .

(٣٩) Epidemics II., IV, وأيضاً Epidemics VI, 7, 1, etc.

(٤٠) Aphorisms 4, 33.

(٤١) Epidemics VI, 32; Littré, vol. 5, p. 357.

(٤٢) يقسم كتاب الأوبئة الثانى إلى ستة أقسام تشتمل على ١١٦ مادة ، ويقسم الكتاب السادس إلى ثمانية أقسام فيها ١٦٠ مادة . أما الرابع والخامس والسابع فتتضمن تباعاً ٦١ و ١٠٦ و ١٢٤ مادة . فمجموع المواد فى المؤلف إذن ٥٦٧ مادة . ثم إن كلا من هذه المواد ، بوجه العموم ،

يعالج حادثة أو ملاحظة أو حكمة طبية واحدة ، على أن بعضها يتجاوز الموضوع الواحد ، كما فى المادة التى أوردناها آنفاً ، والتى تجمع بين حادثتين من نوع واحد .

(٤٣) Withington, in Loeb, vol. 3, p. xii.

(٤٤) Littré, vol. 3, pp. 182-261; Loeb, vol. 3, pp. 2-51.

(٤٥) Littré, vol. 3, pp. 262-337; Loeb, vol. 3, pp. 54-81.

(٤٦) Littré, vol. 3, pp. 338-563; vol. 4, pp. i-xx, 1-395; Loeb, vol. 3, pp. 84-455.

(٤٧) Galen, XV, 456.

(٤٨) للاطلاع على تاريخ التدليك انظر *Introduction*, vol. 3, p. 288.

(٤٩) كانت كيتيون Cition إحدى المدن التسع الرئيسية فى قبرص . أما أبوللونيوس فقد تألق نجمه فى الإسكندرية . وللوقوف على حكاية الأشكال الواردة فى تعليق أبوللونيوس راجع *Introduction* vol. 1, p. 219. وقد استنسخ هذه الأشكال هرمان شون Hermann Schone على نحو جميل للغاية فى كتاب Illustrierter Kommentar zu peri arthron (75 pp., 31 pls.; Leipzig, 1896).

(٥٠) Codex Laurentianus, lxxiv, 7.

(٥١) Littré, vol. 1, pp. 557-637; Loeb, vol. 1, pp. 3-64; CMG, vol. 1, pp. 36-55.

(٥٢) Chap. VIII.

(٥٣) كان المؤلف أول من استخدم اللفظة اليونانية hypothesis ولكن لا بالمعنى المعروف اليوم ، بل بمعنى الفرض الاعتباطى الذى يتعذر إثباته . ونظرية الطبائع الأربع افتراض من هذا النوع .

(٥٤) إن لفظة Technical مشتقة من اللفظة اليونانية techne ومعناها : الفن ، إلا أنها تعنى أيضاً : « الطريقة » ، وبذلك تصبح قريبة المدلول من لفظة Science ، بل إن ذلك أشبه بما بين اللفظتين الإنجليزيتين scientific و technical من مقارنة . فالفرق بين techne و episteme أو Mathema فى اليونانية قد لا يكون أعظم من الفرق بين المقصود بالمعرفة العملية والمعرفة النظرية .

(٥٥) Chap. IX.

(٥٦) يستخدم جونز فى ترجمة Hippocrates فى المجلد الأول ص ١٩ و ٥٣ ، لفظة hypothesis فى مقابل اللفظة اليونانية postulate لتلافى الالتباس ، أما نحن فنقصر اليوم استخدام اللفظة على الصالح القيم من الفروض حتى نميزها من الفروض الواهية . على أن اللهجة فى كلا القولين مدهشة فى حداثتها ، إذ يتحدث المؤلف وكأنه من علماء اليوم ، فيقول : لا تعمم لأول وهلة ولا تستعمل الأفكار إلا بعد أن يثبت قيمتها العملية .

(٥٧) Littré, vol. 6, pp. 1-27; Loeb, vol. 2, pp. 186-217; CMG, vol. 1, pp. 9-10.

(٥٨) Littré, vol. 6, pp., 29-69; Loeb, vol. 4, pp. 1-41.

(٥٩) Littré, vol. 6, pp., 70-87; Loeb, vol. 4, pp. 44-59.

(٦٠) يقع هذا النص فى *Historia animalium* (3, 3, p. 512 b) والنبذة المقتبسة مأخوذة من الفصل الحادى عشر من « طبيعة الإنسان » "nature of man" وهو وصف مشوش للأوردة .

(٦١) W.H.S. Jones, *The medical writings of Anonymus Londinensis* (Cambridge University Press, 1947) p. 75 (*Isis* 39. 73 '1948')

(٦٢) آثرنا استخدام هذا التعبير بدلا من القول المعتاد « كيف ننقص الوزن أو نزيده » لأن القدماء لم يذكروا الوزن أو لم يعمد أحد منهم إلى وزن نفسه .

(٦٣) Littré, vol. 5, pp. 470-503; Loeb, vol. 4, pp. 62-95.

(٦٤) Littré, vol. 2, pp. 12-93; Loeb, vol. 1, pp. 66-137; CMG, vol. 1, part 1, pp. 56-78.

(٦٥) هكذا يبدأ الفصل : « وزيادة على ذلك فإن الكثرة الغالبة من الرجال السيتيين يصبحون عنينين يشتغلون أشغال النساء ، ويعيشون عيشة النساء ، ويتحدثون بأحاديثهن . وقد دعوا أمثال هؤلاء الرجال (Anarieis) Anaries ويعرض هيرودوت هؤلاء القوم بالذات ويطلق عليهم أسماء يكاد يكون الاسم السابق وهو Enarees (i, 105; iv, 67) والراجح أنها لفظة سيتية معادلة للفظة androgyne (خنثى) أو homosexual (لوطى) .

(٦٦) Littré, vol. 9, pp. 94-121; Loeb, vol. 1, pp. 337-361; CMG, vol. 1, part I, pp. 79-84.

(٦٧) LV. Moisture the vehicle of nourishment الرطوبة ، عجلة التغذية

(٦٨) Chap. XXXVI.

(٦٩) End of Chap, XLIV. نهاية الفصل الرابع والأربعين

(٧٠) أثبتنا هنا الفصول الأول والثامن والتاسع والثامن والأربعين كاملة .

(٧١) براكساجوراس الكوسى (النصف الثانى من القرن الرابع) هو الذى قام بأول دراسات يونانية فى النبض » ومن بعده هيروفيلوس Herophilos الخلقدونى of Chalcedon (النصف الأول من القرن الثالث ق . م .) . وهذا يصلنا بالمصر الهيلينى . وقد لاحظ الأطباء الأبقراطيون دقات القلب الشديدة فى الحميات ، انظر (Littré's index s.v. "battement") وانظر النبذة الرابعة أعلاه .

(٧٢) Littré, vol. 6, pp. 116-137; CMG, vol. 1, part I, pp. 85-90.

(٧٣) Littré, vol. 6, pp. 462-663; Loeb, vol. 4, pp. 224-447.

(٧٤) Armand Delatte, *Les harmonies dans l'embryologie hippocratique* (Mélanges Paul Thomas, pp. 160-171, Bruges, 1930). Joseph Needham, *A history of embryology* (Cambridge: University Press, 1934), pp. 13-19 (*Isis* 27, 98-102 '1937').

(٧٥) Book II, LXI-LXVI.

(٧٦) End of LXXXVII.

(٧٧) Jones, Loeb *Hippocrates*, vol. 4. p. lii.

(٧٨) Littré, Vol. 6, pp. 88-113; Loeb. Vol. 2. pp. 221-253; CMG; Vol. 1. part 1, pp. 91-101.

(٧٩) لما كانت الزلازل تتوالى كثيراً فى منطقة البحر المتوسط فإن الفلاسفة الأول أمثال أنا كسيمينيس وأنا كساجوراس وديمكريتوس حاولوا أن يضعوا تعليلا منطقياً لها. وفى Meteorologia يقول أرسطو الذى بحث آراءهم : إن ظواهر الزلازل والبراكين تسببها رياح فى جوف الأرض .

Archibald Geikie, *Founders of geology* (London, 1905), pp. 13-14.

(٨٠) J. Filliozat, *La doctrine classique de la medecine indienne* (Paris: Imprimerie Nationale, 1949), pp. 161-190 (Isis 42, 353 '1951').

(٨١) Jones, Loeb *Hippocrates*, vol. 2, p. xxviii.

(٨٢) Littré, vol. 5, pp. 504-573.

(٨٣) *Prorrhetic* I, 16-*Coan prenotions*, 95.

(٨٤) Aristotle, *Historia Animalia* VIII, 22, 604 A. « تصاب الكلاب بثلاثة أمراض ، الكلب ، والالتهاب التنيمى فى اللوزتين ، وألم الأقدام . فالكلب يجعل الحيوان فى حالة من الهياج الشديد . وكل حيوان — إلا الإنسان — ينتقل إليه هذا المرض بالعدوى إن هو عضه كلب كلب . وهو مرض قاتل ، يقضى على الكلب نفسه وعلى كل حيوان يعضه — ما عدا الإنسان » .

(٨٥) Littré, Vol. 4, pp. 450-609; Loeb, Vol. 4, pp. 98-221.

(٨٦) يوجد منه على الأقل ١٤٠ مخطوطة باليونانية ، و ٢٣٢ باللاتينية ، و ٧٠ بالعربية ، و ٤٠ بالعبرية ، ومجموع هذه ٤٨٢ مخطوطة ، وهنالك عدد كبير منها فى لغات أخرى .

(٨٧) يشتمل القسم الأول على العدد الأقل من الحكم (٢٥) والقسم السابع على العدد الأعظم (٨٧) .

(٨٨) *Aphorisms*, I, 1.

(٨٩) *Ibid* I, 3.

(٩٠) *Ibid.*, I, 13; II, 10; VI, 17, VI, 46. والأخير هو وصف موجز لداء «بوط» Pott's disease وهو المسمى باسم الجراح الإنجليزى برسفال بوط (١٧١٤ — ١٧٨٨) . Percival Pott.

(٩١) Littré, Vol. 5, pp. 574-733.

(٩٢) Littré, Vol. 8, pp. 542-549; Loeb, vol. 2, pp. 317-329.

(٩٣) Littré, Vol. 4, pp. 628-633; Loeb, Vol. 1, pp. 291-301; CMG, vol. 1, part 1, pp. 4-6.

(٩٤) إيسوب هو المؤلف التقليدى للأمثال اليونانية ذات التاريخ البالغ التعقيد . وعن هيرودوت (II, 134) أن إيسوب هذا المؤلف القصصى (ho logopoios) كان عبداً فى ساموس فى ملك أماسيس Amasis (ملك مصر ٥٦٩ ـ ٥٢٥) . وقد دون سيرته ماكسيموس بلانوديس Maximos Planudes (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) Ben Edwin Perry, *Studies in the test history of the life and fables of Aesop* (256 pp., 6 pls.; Haverford, Pennsylvania; American Philological Association, 1936). Article "Fable," *Oxford classical dictionary*, p. 355.

(٩٥) Littré, vol. 4, pp. 638-643; Loeb, vol. 2, pp. 257-265; CMG, vol. 1, pp. 7-8.

(٩٦) Littré, vol. 9, pp. 198-221; Loeb, vol. 2, pp. 305-313, Chap. I only CMG, vol. 1, part 1, pp. 20-24.

(٩٧) Littré, vol. 9. pp. 222-245; Loeb, vol. 2, pp. 269-301; CMG, vol. 1, part 1, pp. 25-29.

(٩٨) Chap. V.

(٩٩) Littré, vol. 9 pp. 246-273; Loeb, vol. 1, pp. 305-333; CMG, vol. 1, part 1, pp. 30-35.

(١٠٠) *Introduction*, vol. 3, p. 10.

(١٠١) *Introduction*, vol. 3, pp. 247-248.

(١٠٢) هذه الكتب السبعة عشر ، إن لم تشكل دستوراً طبياً فهى تؤلف مجموعاً قائماً بنفسه ؛ كل رسالة منه خليقة بأن تسترعى انتباه أى تلميذ من تلامذة جالينوس كائناً من كان. وهذه الكتب هى :

(De officina medici, Prognosticum (Praenotiones), De diaeta in acutis, Prorrhetic (Praedicta), Epidemiorum libri, De fracturis, De articulis, De natura hominis, De humoribus, De alimento, Aphorismi, De salubri victus ratione

(وجميع هذه مثبتة فى الطبعة التى نشرها كون Kuhn لجالينوس ، وجميعها إلا الأخير منها مثبتة فى جدول حنين) .

De capitus vulneribus, De aere aquis locis, Iusiurandum, De ulceribus, De natura pueri.

(١٠٣) نشر هذا البحث بالعربية والألمانية جويتلف برجشتراسر (١٨٨٦ ١٩٣٣) .

Hunain ibn ishaq uber die syrischen und arabischen Galen-Uebersetzungen (Leipsig, 1925)

ثم لخصه ماكس مايرهوف (١٨٧٤ – ١٩٤٥) فى مجلة ايزيس *Isis* 8, 685-724 (1926) وقد أشرت إلى كلا الكتابين بهذا الرمز : Hunain, No. x.

(١٠٤) وضعت كلمة مقالة فى الترجمة العربية مقابل الكلمة اليونانية Tmema (أى قسم) ووضعت لها فى اللاتينية كلمة liber . وهذه الكلمات الثلاث متعادلة ، وإن كانت تمثل وجوهاً مختلفة من المجاز .

(١٠٥) هذا النص مترجم عن النص العربى الذى نشره برجشتراسر (Hunain, No. 88) وكان أيوب الرهاوى الأبرش (النصف الأول من القرن التاسع) ، يشتغل بالترجمة من اليونانية إلى السريانية ، وكذلك جبريل بن بختيشوع (النصف الأول من القرن التاسع) . أما أحمد بن محمد المدبر فكان والياً كبيراً وراعياً للعلم ، انظر (*Isis* 8, 715 ‘1926’) . وكان محمد بن موسى أحد بنى موسى أعنى أحد أبناء موسى بن شاكر الثلاثة (النصف الأول من القرن التاسع) الذين رعوا حركة النقل إلى العربية ، وعاش محمد هذا حتى سنة ٨٧٣/٨٧٢ .

(١٠٦) الرأى المعتمد فيما يتعلق بالمسيح هو أن له طبيعتين (إنسانية وإلهية) لكن شخصه واحد . وادعى النساطرة أن هنالك طبيعتين وشخصين وبناء على ذلك دانهم مجمع أفسوس سنة ٤٣١ . أما اليعاقبة فقد اعتصموا بالنقيض الآخر مدعين أن المسيح ذو طبيعة واحدة وشخص واحد فدانهم كذلك

مجمع خلقدون سنة ٤٥١ . وتم نقل العلوم من اليونانية إلى العالم الإسلامى على يد هذين الفريقين — (المتعارضين) من هراطقة المسيحية : النساطرة واليعاقبة . وكان الآسيويون من هذين الفريقين يتكلمون لغة واحدة هى السريانية وإن كانوا يكتبون خطين مختلفين . *Introduction*, vol. 2, p. 501. وعليه جرى التقليد العلمى اليونانى — السريانى — العربى فى مجريين يستعيد الواحد ما فى الآخر ويتحداه. ولا يتيسر هنا إيراد التفاصيل بعد أن بسطت الموضوع فى كتابى . *Introduction*

(١٠٧) Henri Pognon, *Une version syriaque des Aphorismes d'Hippocrate* (2 vols.; Leipzig, 1903) وهى طبعة سريانية فرنسية . ويشير بونيون Pognon إلى أن واضع النص السريانى قد يكون سرجيوس Sergios بل قد يكون أقدم من ذلك (Vol. 1, p. xxx) ، وإن كان لا يدلل على صحة هذا الرأى .

(١٠٨) لم أعرض لهذا الشرح فى كتابى *Introduction* . على أن فى مكتبة الأسكوريال نسخة من شرح عبد الرحمن لكتاب الحكم الطبية انظر : H.P.J. Renaud's catalogue (Paris, 1941) No. 877 (*Isis* 34, 34-35 '1942-43').

(١٠٩) حتى إن الكتاب اللاتين نظير جان دى تورنمير Jean de Tournemire (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) دعوه بـ Flores Galieni للإلمام بطبعات فصول موسى العربية واللاتينية ، راجع Osiris 5, 109 (1938), Figs. 28-29. وأيضاً *Introduction* vol. 2, p. 377, no. 8, إن مجموع ابن ميمون أضخم جداً من مجموع أبقراط — ففيه نحو ١٥٠٠ حكمة فى مقابل ٤١٢ .

(١١٠) عنى بنشر نص Glosule amphorismorum secundum magistrum Maurum سلفتورى الرنزى Salvatore de Renzi بعنوان : *Collectio salernitana* (Naples, 1856), vol. 4, pp. 513-557.

(١١١) *Introduction*, vol. 2, p. 1099, note.

(١١٢) من المحتمل أن يكون الشرح المنسوب إلى برهبرايوس قد وضعه مسيحى آخر اسمه كذلك أبو الفرج ، أقل منه شهرة ، وهو أبو الفرج يعقوب ابن القف الكركى (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) ، وهو منسوب تخميناً فى جدول رينو لمخطوطات مكتبة الأسكوريال إلى ابن القف . على أنه من المحتمل أيضاً أن يكون كل من الرجلين قد وضع شرحاً .

(١١٣) *Introduction*, vol. 2, p. 846.

(١١٤) *Introduction*, vol. 3, p. 248.

(١١٥) يعد جرمين لافوى Germaine Lafeuille دراسة على تلك الترجمة الفرنسية ، ستظهر فى ١٩٥٣ — ١٩٥٤ .

(١١٦) Klebs, 564.3-6

(١١٧) *Introduction*, vol. 3 p. 1195.

(١١٨) Klebs, 476.

(١١٩) Klebs, 1002. Dean Putnam Lockwood, *Ugo Benzi* (Chicago: University of Chicago Press, 1951) (*Isis* 43, 60-62 '1952').

(١٢٠) Klebs 116. 1-6, 520. 1-2.

(١٢١) Littré, vol. 4, pp. 446-457.

الفصل الخامس عشر

كوس من الناحية الأثرية

تتحكم شخصية أبقراط تحكماً تامًّا فى تطور الطب اليونانى القديم، وتتصل اتصالا وثيقاً بجزيرة كوس ، ولذا كانت التوطئة للموضوع من الناحية الأثرية لا تخلو من قيمة .

كانت كوس ، رغم صغرها ، مهداً لكثير من الأطباء[1]؛ ومع ذلك فى هذا ما يدعو إلى الحيرة ، إذ يبدو أن أبقراط وزملاءه لم يمارسوا مهنتهم فى كوس بقدر ما مارسوا فى نواح أخرى بعيدة عنها من بلاد اليونان. ولو عرَّفنا هيلاس — حسب ما هو معلوم بصورة عامة — بجزر البحر الايجى والأراضى المحيطة به (أى بلاد اليونان الأصلية فى الغرب والبلقان فى الشمال وأيونيا فى الشرق وكريت فى الجنوب) ، لو عرَّفناها بذلك لوجدنا أن كوس كانت تقع قرب الزاوية الجنوبية الشرقية لتلك المنطقة ، وأن الأطباء الأبقراطيين كانوا يمارسون عملهم فى الجزء الشمالى منها ، أى فى تساليا ومقدونيا وتراقية . ولو أعد شخص قائمة بالمرضى الذين ورد ذكرهم فى الحوادث الإكلينيكية ، وبالأماكن التى كانت تلاحظ فيها الحالات المرضية ، لوجد أن خبرة الأطباء الأبقراطيين إنما اكتسبت جلها فى الشمال (كما هو محدد سابقاً)، ولم يكتسب منها فى كوس سوى النزر القليل . وليس فى الآثار الكتابية سوى إشارتين لمرضى كوسيين : الأولى تشير إلى « أخت الرجل الكوسى » التى كانت تقاسى تضخماً فى الكبد[2] ، والثانية تشير إلى ديديمارخوس فى كوس[3]، وقد عولجت فى كوس نفسها ؛ أما الأولى فلا نستطيع أن نجزم بمكانها لأنه يجوز أن تكون أخت الكوسى قد تنقلت مبتعدة عن وطنها الأصلى . وفى كتاب آخر[4] . وصفت خمر كوس « الشديدة القوة والدكنة » للمرضى مرتين[5] . إلا أن الخمر من السهل

جداً أن تصدر ، وإن كانت من النوع الجيد فإننا نستطيع أن نفترض أنها كانت تشرب خارج الجزيرة بالقدر الذى كانت تشرب فيه داخلها . وعلى ذلك نواجه مفارقة مؤداها أن الأطباء الأبقراطيين يشار إليهم كممثلين لمدرسة كوس أو نقابتها الطبية ، بينما مارسوا أعمالهم فى أماكن أخرى ، حسبما استطعنا تعيينه من أماكن نشاطهم . وفى سبيل إيضاح هذه المفارقة دعنا نتحدث بإيجاز عن تاريخ كوس . أشرنا (فى الفصل الثالث عشر) إلى أن الجزيرة كانت غنية بإنتاجها ولا سيما العنب والحرير ، ومن المستحسن أن ندرك أن رخاءها فى أيام أبقراط والأيام التى تلتها لم يكن شيئاً مستحدثاً ، إذ لم تكن كوس محدثة نعمة بين جزر ذلك البحر الجميل ؛ بل كانت ، بسبب ما فيها من رواسب عظيمة لصخور زجاجية بركانية ، مركزاً تجارياً فى العصر الحجرى [٦] .

وكان الكثير من هذه الصخور الزجاجية يستخرج من كوس نفسها ، والكثير منها أيضاً — مما هو من نوع أنقى — يستخرج من جزيرة هيالى [٧] التى تقع بين كوس وشبه جزيرة كنيدوس . وقد أكسبت تجارة الصخور الزجاجية تلك المنطقة (كوس وكنيدوس) نوعاً من التفوق ، إذ أوجدت لها ثروة ومكنت من ازدهار الثقافة والعلم فيها . ومن المؤكد أنه كان فى كوس أطباء يزاولون عملهم قبل الغزو الدورى بأمد طويل .

جاء الدوريون على الأرجح من كريت حوالى القرن التاسع ، وطردوا السكان الأصليين من الكاريين أو سلبوهم ما كانوا يملكون . ومن المحتمل أن يكون الدوريون هم الذين أدخلوا العبادات الأسكلبيوسية * فعملوا بذلك على إضفاء أهمية جديدة لفن الشفاء . ومن الجهة الأخرى كانت كوس فى موقع ممتاز ، عند ملتقى طرق كثير من الأمم مما جعل أهميتها التجارية دولية بحكم الضرورة . وكان للتجار الكوسيين معاملات تجارية مع بلاد اليونان وكريت ، وكاريا وأيونيا ، وآسيا وأوربا ؛ وكانت علاقاتهم التجارية بالمدن الأيونية وثيقة جداً حتى إن كوس نفسها أصبحت ، بالرغم من سيادة الدوريين عليها ، مدينة أيونية إلى حد ما . وعلى أى حال ، كانت ثقافتها الراقية أيونية لا دورية ، واللهجة الأيونية فيها تعتبر لغة الكياسة والظرف .

إن رخاء الجزيرة وما كانت تنعم به من علاقات دوليـــة كانا عاملين

---

* نسبة إلى اسكلبيوس إله الطب (المترجم) .

ممتازين لنجاح أى نوع من أنواع الجهد العلمى ولكن هذا كله ليس إلا مجرد خميرة أولى لا بد لها من تدخل رجل عبقرى. ولقد أتيح لأسرة أبقراط ، إحدى الأسر الأسكلبيوسية ، أن تهيئ تلك الفرصة . وعلى ذلك لا غرابة فى أن تكون مدرسة الطب التى أنشأوها أو بعثوها من جديد قد ازدهرت مثل ذلك الازدهار . وكان من الممكن أن تستمر فى ازدهارها لولا كوارث الحرب .

ومن المرجح أن يكون الفتح الفارسى قد سهل صبغ الجزيرة بالصبغة الأيونية . فكانت كوس ، وهى فى ظل دارا (ملك الفرس : ٥٢١ — ٤٨٥) جزءاً من ولاية فارسية ؛ وإذ كان المثقفون من سكانها يحبون إخوانهم اليونانيين ويكرهون أسيادهم الفرس ، فمن الطبيعى أن يلتفوا حول معلميهم الأيونيين وأن يقلدوا الكلام والأخلاق الأيونية — تلك التى كانت تمثل أرفع مثل هيلاس العليا آنذاك . وبعد الانتصار البحرى فى معركة ميكالى * سنة ٤٧٩ ألقوا بالنير الفارسى عن عواتقهم ، وأغراهم الأيونيون — عاجلاً أو آجلاً — بالدخول فى حلف أثينى ضد فارس ، ونتيجة لذلك دخلوا الحرب البيلوبونيزية إلى جانب أثينا ، واشترك تسالوس بن أبقراط فعلا فى الحملة الصقلية المشئومة (٤١٥ — ٤١٣) . وكانت تلك الفترة فترة مفجعة لكوس ، إذ دمرها زلزال[٨] ، ثم غزاها الإسبرطيون بعد مدة وجيزة .

ونستطيع أن نقول إن عهد فتوة مدرسة أبقراط فى كوس كان يوافق نصف القرن الذى سادفيه السلام بين معركة ميكالى وبدء الحرب البيلوبونيزية . تعلّم أبقراط وأظهر عبقريته خلال تلك الفترة ، وما قام به هو وتلاميذه من عمل كان يجب أن يواصل فى مكان آخر . لأن حالة الاضطراب[٩] التى سببتها الحرب لم تكن ملائمة للبحث العلمى ؛ فليس بغريب إذن أن ترك أبقراط وبقية أفراد أسرة الأسكلبياد وطنهم فى الجزيرة وبدأوا يحيون حياة التشرد . وفى هذا ما يفسر المفارقة التى تبدو فى أن تعاليم أبقراط صيغ الكثير منها خارج كوس ، كما

---

* نسبة إلى رأس ميكالى من بلاد اليونان ، وفى هذه المعركة انتصر اليونان على الفرس بعد أن أحرقوا سفنهم ، وتخلى الأيونيون عن سادتهم الفرس ، وانضموا إلى جيش مواطنيهم . (المترجم) .

يفسر مفارقة أخرى هى ثبات المذهب الوضعى الأبقراطى (Hippocratic positivism) برغم وجود الميراث الأسكلبيادى . فبغض النظر عن قوة تأثير أسكلبيوس وشيوع هذا التأثير فقد نجا منه الأطباء الأبقراطيون . وبدلا من أن يتركوا أنفسهم تستولى عليها الطقوس السحرية حدث لهم عكس ذلك تماماً . واستفاد هيكل أسكلبيوس فى كوس فيما بعد من شهرة الأبقراطيين فى سبيل غاياته الدينية .

لا نستطيع أن نقول متى بدأت العبادات الأسكلبيوسية فى كوس . ولكن آثار أقدم هيكل فيها لا ترجع إلى أبعد من القرن الثالث أو نهاية القرن الرابع . وقد اكتشف آثار هذا الهيكل أعضاء المعهد الأثرى الألمانى فى سنة ١٨٩٨ والسنوات التى تلتها . وبعد الحرب العظمى الأولى، حين كانت الدوديكانيز فى حوزة إيطاليا، أجريت حفريات جديدة على أيدى أثريين إيطاليين (شكل ٧٥). لم يكن الهيكل داخل مدينة كوس المسورة ، بل كان على بعد ميل ونصف إلى الغرب منها ، على سفح تل . وكان قائماً على ثلاث شرفات جبلية ولا يزال المرء يرى فى أعلاها آثار هيكل أسكلبيوس الدورى ماثلة بستة أعمدة فى كل جانب عرضى وأحد عشر عموداً فى كل جانب طولى . وفى الشرفة الوسطى توجد معابد صغرى ؛ وفى الشرفة المنخفضة متنزه يحيط به رواق معمد ، وفيه بئر مقدسة بقربها معبد صغير لنيرون (الإمبراطور من ٥٤ — ٦٨) على شكل الإله أسكلبيوس، ومنشئ هذا المعبد طبيب يدعى ك . سترتينيوس كسينوفون[١٠] . وأقدم إشارة إلى هذا الهيكل متأخرة نسبياً ، وقد وردت فى كتاب «جيوجرافيكا»[١١] لاسترابون (١ — ٢ ق م) ، ونصها : « وفى ضواحيها (أى كوس) يوجد الأسكلبيون ؛ وهو هيكل شهير جداً ومليء بنذور عديدة من بينها صورة انتيجونس التى رسمها أبلليس * وسلم كثير من النقوش التى يمتلىء بها الهيكل من العبث ، وهى تخلد ذكرى طقوس التطهير ، ودعوات حفلات الأعياد ،

* ابلليس من أعظم الرسامين القدامى ، عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وعاصر فيليب المقدونى وولده الإسكندر ، ومن أهم ما رسمه صورة أنتيجونس (المترجم) .

والأوامر الرسمية بتبجيل أطباء كوس الذين اشتهر كثير منهم فى العمل خارج بلادهم ، وهلم جرا . أما النذور التى يشير إليها سترابون والتى كانت على الأرجح أكثر بكثير من النقوش الأخرى ، فتمثل مجموعة أخرى من النصب التى توجد بكثرة فى معابد جميع الأقطار والعصور . وكان من ابتلوا بالأحزان الناجمة عن الأمراض أو العاهات أو المصائب الأخرى ، يلجأون إلى الإله وينذرون النذور ؛ فإذا ما شفوا وزالت همومهم عبروا عن شكرهم له بتحقيقها . وتختلف هذه النصب اختلافاً كبيراً فى الحجم والقيمة والمحتويات ، ويمكن أن تمثل الإله أسكلبيوس ، أو الأفاعى التى تقترن به وتمثل وسائل نعمته ، أو المريض ، أو الجزء الذى شفى من جسمه على وجه التحديد . ومن بين النذر الطبية القديمة ما يمثل امرأة حبلى ، وأطفالا ، وعيوناً ، ورحماً ومثانة ، وسرطاناً ثدييًّا ، وجسماً حابناً ، وفتقاً معويًّا[١٢] . ومن أجمل النذائر الطبية التى أعرفها نذيرة مصورة هنا (شكل ٧٦) تمثل رجلا عجوزاً يمسك بذراعيه ساقاً غليظة منتفخة العروق . إن النذائر شائعة جدًّا فى كل مكان حتى إننا نستطيع أن نعتبرها مزية من مزايا الطبيعة البشرية. وهى تكثر بصورة خاصة فى الكنائس الكاثوليكية ، والحجاج الذين يقصدون لورد يسهل عليهم أن يتصوروا كيف كان يبدو الأسكلبيون فى عصر سترابون مثلا . إننى أدعو النذائر مزية من مزايا الطبيعة البشرية ، لأن التقليد هنا خارج عن نطاقها بصورة مؤكدة تقريباً ، فالمريض الممتن يقدم زوجاً من العكاكيز لمعبد « لورد » ، بنفس الروح التى كان يقدمه بها لهيكل كوس أو أبيدوروس (شكل ٧٧) .

ولدينا الآن آراء ثابتة تتعلق بطرق العلاج التى كان يستخدمها الأطباء الأبقراطيون ؛ كانت تلك الطرق معقولة لدرجة تدعو إلى الدهشة ، كما ظهر فى الفصول السابقة . هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى ، فإننا لا نعرف شيئاً سوى ما تنبئنا به النذائر (وذلك قليل لا يذكر) عن أنواع العلاج الطبية التى كانت تصطنع فى أسكلبيون كوس . ومن المرجح ، على كل حال ، أن ذلك الأسكلبيون كان منضبطاً لحد ما ، وأن كهنته كانوا ملزمين باستخدام ما كان

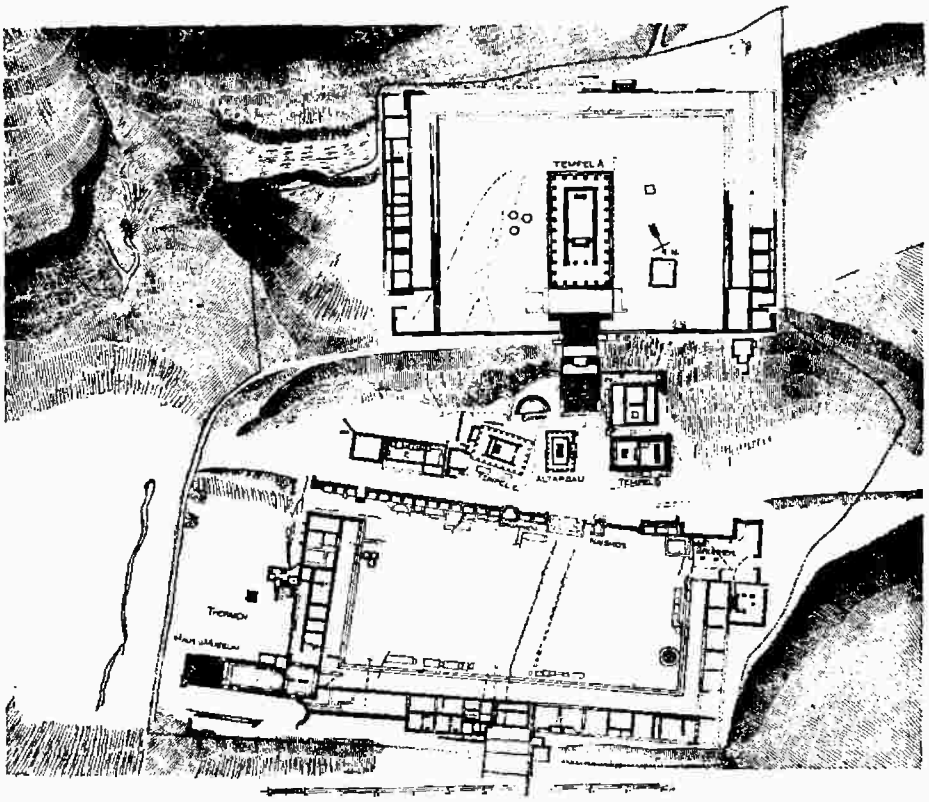

١٩٠٤

(شكل ٧٥) تصميم الأسكليبيون كما وضعه علماء الآثار الألمان سنة ١٩٠٤ ، وتظهر فيه الترفات الجبلية الثلاثة المتتالية ، وتبدو أعلاها فى أعلى الشكل . وقد اكتشف علماء الآثار الطليان حديثاً شرفة رابعة يمكن أن تمثل فى أسفل هذا الشكل ، انظر :

Schazmann, Asclepieion (Berlin, 1932), pl. 37

(شكل ٧٦) نذيرة تمثل رجلا يمسك أمامه بساق ضخمة فيها وريد منتفخ .
الأصل محفوظ فى المتحف الوطنى بأثينا .

Mitt. Krl. deut. Archaeol. Inst., Athenische Abt., 18 (Athens 1893,), pl. 11.

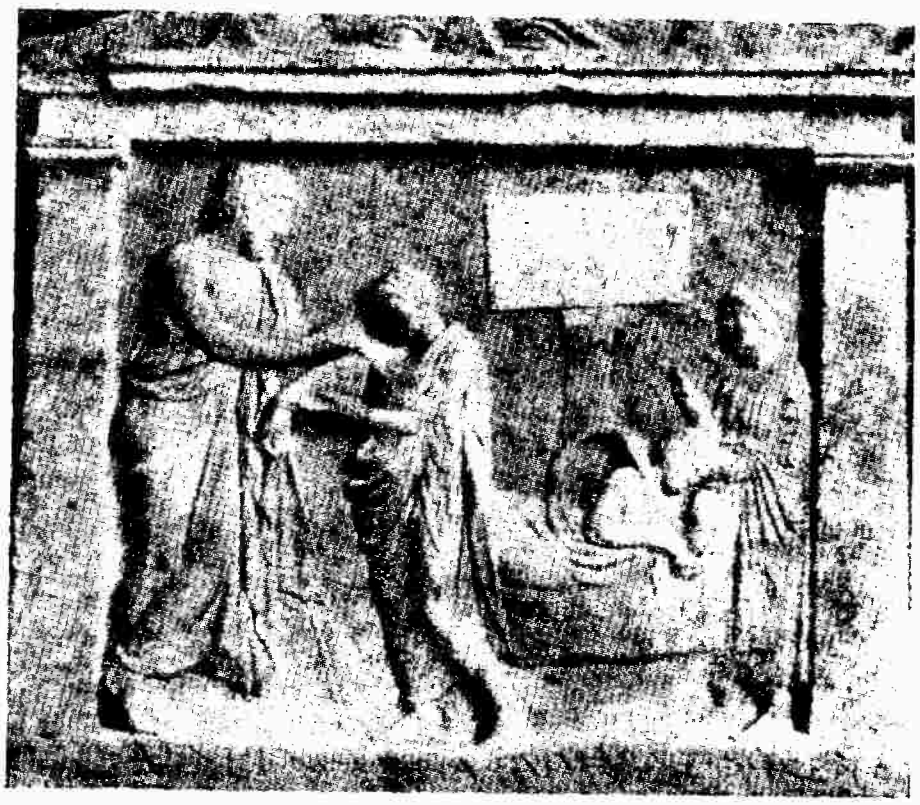

(شكل ٧٧) نذيرة لأمفياراوس تمثل منظر علاج (المتحف الوطنى فى أثينا) (عن :
Maxime Gorce and Raoul Mortier, eds., Histoire générale des religions (Paris: Quillet, 1944), vol, 2 p. 137.

شائعاً بجوارهم بين عامة الناس من طرق علاج ، ومقيدين بالمبادئ الأبقراطية فى الطب ، وإن طرق هؤلاء الكهنة كانت معقولة أكثر (أو أقل بعداً عن العقل) من تلك التى كانت تستعمل فى هياكل إله الطب الأخرى ، وأنهم لجأوا إلى العقل أكثر مما لجأوا إلى السحر ، أو أنهم استخدموا الأخير بصورة أقل ظهوراً[١٣] . وليس من التكرار فى شىء أن نعيد الحقيقة القائلة بأن الطرق التى كانت تستخدم فى الهيكل (كالتدفئة ، والراحة ، وبث الثقة) كانت معقولة وممتازة . أما الطرق غير المعقولة التى كانت تستخدم فى أبيدوروس وأماكن أخرى فقد كانت من ثمار سذاجة الشعب وطمع الكهنة .

وكل ما نستطيع قوله أنه لم تكتشف فى كوس لوحات نذور ، يمكن أن تقارن بتلك التى اكتشفت فى أبيدوروس . وهاك نصوص ثلاث قطع من نقوش أبيدوروس .

١ — حملت كليو مدة خمس سنين تقدمت بعدها للإله مبتهلة ضارعة ونامت فى هيكل الأباتون[١٤] . وعندما تركته وخرجت من جواره ولدت ولداً غسل نفسه بعد الولادة مباشرة فى الينبوع وسار مع والدته . إزاء هذا الفضل نقشت على لوحتها المقدمة ما يلى : « ليست عظمة اللوحة هى التى تثير الإعجاب وإنما تثيره (المعجزة الإلهية) فى أن كليو حملت حملها فى رحمها خمس سنين حتى نامت فى الهيكل وشفيت » .

٢ — وكان رجل من « تورون » يشكو من الديدان ، فرأى رؤيا خيل إليه فيها أن الإله شق صدره بسكين وأخرج منه الديدان ، وأعطاه إياها فى يديه ، ثم أطبق صدره ثانية . وفى الصباح المبكر رحل والديدان فى يديه وبرئ تماماً . وكان قد ابتلعها فى شراب أعدته له أم زوجه .

٣ — شفت أفعى إحدى أصابع قدمى رجل . وتفصيل ذلك أنه كان يقاسى ألماً من قرحة خبيثة فى إحدى أصابع قدميه ، فأخرجه خدام الهيكل خلال النهار ووضعوه على مقعد . وحين طرق النوم عينيه ، خرجت أفعى من الأباتون وشفت إصبعه بلسانها ثم قفلت راجعة من حيث أتت . وحين استيقظ المريض معافى قال إنه رأى رؤيا بدا له خلالها أن شاباً جميل الطلعة وضع دواء على إصبعه[١٥] .

(شكل ٧٨) أسكلبيوس وما يرمز به إليه : أفعى ملتفة حول عصاه . . . مصنوع من البرونز ومحفوظ فى متحف برلين

W.H.Roscher,Ausfuhrliches Lexikon der griechischen und romischen Mythologe Leipzig, 1884-1890, vol. I, p. 636.

ورد ذكر الأفاعى التى كانت تحتفظ فى هياكل إله الطب ثلاث مرات حتى الآن (وبصورة رئيسية فى الفصل الثالث عشر) . ووجود الأفاعى واستخدامها فى الطب يقيمان الدليل على قدم العبادات الأسكلبيوسية . إذ أن أهم ما كان يقترن بالإله أسكلبيوس عصا وأفعى ، تلتف الأخيرة منهما حول الأولى على العموم . وليس لنا أن نهتم بالمعنى الحقيقى لهذين الرمزين لأن القدماء لم يتفقوا على تفسيرهما . كما أن المحدثين من العلماء عاجزون عن عمل شىء فى هذا الشأن أكثر من تكديس سلسلة من التخمينات والظنون . هكذا كان الأمر وحسب : رجل عجوز وقور ، يلتحى لحية كاملة ، ويحمل عصا ثقيلة تنساب حولها أفعى ، إنه أسكلبيوس دون ريب ؛ ولا نحاول أن نثير أسئلة بعد ذلك . (شكلى ٧٨ و ٧٩)[١٦] .

كان أسكلبيون كوس (الهيكل) مشهوراً فى أيام الهيلينيين والرومان ، ولكنه قاسى الكثير على أيدى محطمى التماثيل والصور من المسيحيين فى القرن الرابع . وتهدم على أثر زلزال سنة ٥٥٤ .

ويمكن أن يضاف إلى البينات الأثرية روايتان متوارثتان محليا تميل إلى قبولهما ، إن لم يكن بنصهما الحرفى ، فعلى الأقل لأنهما رمزان لشكر أبناء كوس وإخلاصهم الشديد لأشهر شخص من مواطنيهم .

أما الرواية الأولى فتتعلق بالشجرة العتيقة العريضة الأوراق القائمة فى سوق المدينة الرئيسية فى الجزيرة[١٧] ، إذ يدّعى أن أبقراط علّم تحت ظلالها . والشجرة ، لا شك ، قديمة العهد جداً ، وتمتد غصونها فوق ساحة المدينة بأسرها ، كما تدعمها أعمدة رخامية أخذت من الأسكلبيون . ومن يدرى ، فلعلها عاصرت أبقراط ، أو لعلها فرع لشجرة أخرى كانت موجودة فى نفس المكان فى زمنه . تذكر الأشجار العتيقة فى حديقة الجثمانية* ، تلك الأشجار التى يقول الآباء الفرنسسكان إنها كانت معاصرة للمسيح . إن شجرة كوس ، فى الواقع ، لا بد أن تكون أقدم من أشجار زيتون القدس بأربعة قرون على الأقل .

وهناك جزيرة صغيرة تقع بالقرب من الساحل الجنوبى الشرقى لكوس تدعى بلا يونيسى ، يروى أن أبقراط كتب بعض كتاباته فى خلوتها[١٨] .

وباختصار كانت كوس وكنيدوس المتجاورتان مهدى العلاج العلمى . ولكون أسرة اسكلبياد — وهى أسرة أبقراط — من كوس ، أصبحت هذه الجزيرة أكثر شهرة من جارتها فى القارة (كنيدوس) وكسفتها تقريباً . وقد بدأ الطب الأبقراطى فى كوس ، ولكنه تطور بصورة رئيسية فى شمال المنطقة التى يسكنها اليونان . ومن الممكن أن يكون بعض أفراد أسرة أبقراط قد بقوا فى كوس وتابعوا التقليد المجيد الذى بدأ به . هذا ، وفى القرن الثالث كان فى بناء

---

* تقع هذه الحديقة على السفح الأدنى لجبل الزيتون فى القدس ، وتتوسطها كنيسة فخمة . والإشارة هنا إلى أشجار الزيتون العتيقة فى هذه الحديقة . (المترجم) .

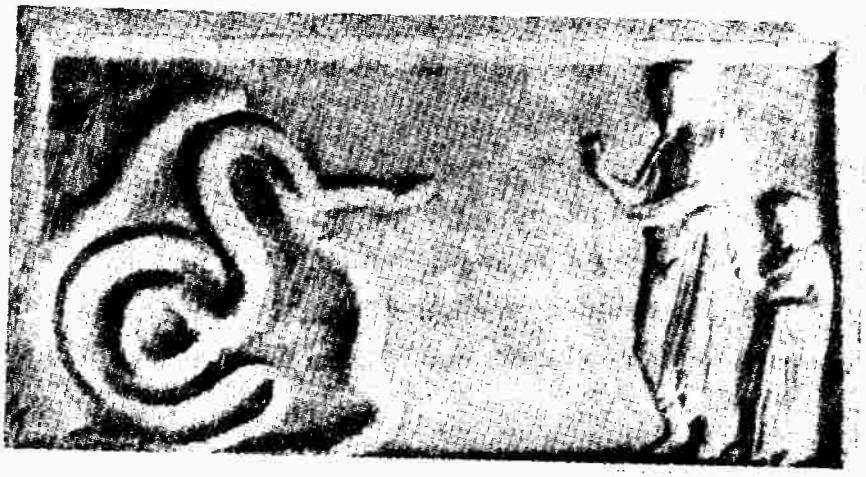

(شكل ٧٩) تقديم الولاء لأفعى أسكليبوس (متحف برلين) . (عن كتاب)

Gorce and Mortier, Histoire générale des religions, vol. 2,p. 135.)

أسكليبيون (أو فى بناء أسكليبيون جديد أوسع من السابق) مازاد من شهرة العلاج الوثنى . ومن المحتمل أن يكون العلاج العلمى والدينى قد وجدا جنباً إلى جنب فى كوس كما يوجد الآن فى بوسطن .

وطلاب الطب اليونانى أوفر حظاً من طلاب الشعر اليونانى ؛ لأنهم يستطيعون أن يردوا المكان الذى نشأ فيه أبقراط وأطلق العنان لأحلامه . ويستطيعون أن يجلسوا فى ظل شجرة عتيقة واسعة الأوراق فيتخيلوا أن معلمهم جلس هناك منذ خمسة وعشرين قرناً . بينما يستحيل على المرء أن يتصور ظروف هوميروس وما كان يحيط به إحاطة مباشرة .

* * *

اعتمدت فى دراسة تاريخ كوس وآثارها على المطبوعات التالية :

F.H. Marshall, *Discovery in Greek lands* (Cambridge, 1920), pp. 82-84 [*Isis* 4, 59 (1921-22)].

Karl Sudhoff, "Cos and Cnidos," *Ann. Medical History* 2, 13-19 (1930) [*Isis* 15, 199 (1931)].

Archaologisches Institut des deutschen Reiches, *Kos. Ergebnisse der deutschen Ausgrabungen und Forschungen*, vol. 1, Paul Schazmann, *Asklepieion* (folio, 110 p., 57 pl., 1 map; Berlin, 1932).

Aldo Neppi Modona, *L'esola di Cos nell'antichita classica* (Rhodes: Memorie dell'Istituto storico di Rodi, 1933), vol. 1. (folio, 240 pp., 18 pls., 2 maps).

Emma J. and Ludwig Edelstein, *Asclepius. A collection and interpretation of the testimonies* (2 vols.; Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1945) [Isis 37, 98 (1947)].

تعليقات

(١) راجع الفهرست لفظ : « كوس » .

(٢) كتاب Epidemics الجزء الثانى ، الفصل الرابع والعشرون .

(٣) كتاب Prorrhetic الجزء الأول الفصل الرابع والعشرون .

(٤) كتاب De morbis internis الفصل الخامس والعشرون ، والفصل الثلاثون .

(٥) كانت خمر كوس مشهورة . ويقول استرابون (الفصل الرابع عشر ، ص ٢ و ١٩) تكثر الفواكه فى جميع أجزاء كوس ولكنها كخيوس ولسبوس أكثرها ما تشتهر بخمرها » .

(٦) هذا الزجاج البركانى شديد الصلابة والحدة ولذا يكون مادة ممتازة لأدوات العصر الحجرى .

(٧) هيالى مشتقة من هيالوس التى تعنى البلور الصخرى أو الزجاج . وقد اشتقت الجزيرة اسمها من مصدر ثروتها الرئيسى ؛ وهى تسمى اليوم إستروس .

(٨) من المحقق أن زلزال سنة ٤١٣ — ٤١٢ لم يكن الزلزال الأول ولا الأخير كما سنرى . وتؤيد الأساطير شهرة الجزيرة كمركز زلزالى . فقد روى أن بوليبوتيس ، أحد المردة الذين حاربوا ضد الآلهة ، طارده بوسيدون (نبتيون) عبر البحر حتى كوس . ثم احتدم إله البحر (أى بوسيدون) غيظاً وكسر جزءاً من الجزيرة وألقاه على بوليبوتيس فدفنه تحته . إن مختلق هذه الأسطورة من العامة لم يختاروا كرس عبثاً ، بل اختاروها لعدم استقرارها المعروف .

(٩) مما ضاعف حالة الاضطراب اختلاف عناصر سكان كوس. من محبى الهلينيين بطريق غير مباشر . ونستطيع أن نجزم بأن شعورهم بالعطف على الدوريين لم يخب ، وأن كثيرين منهم كانوا يعطفون على إسبرطة . وقد برهنت على ذلك برهنة تامة الحرب الاجتماعية التى بدأت سنة ٣٥٧ والتى كانت موجهة بصورة رئيسية ضد محمية أثينا . وحالفت كوس موسولوس ملك كاريا (٣٧٧ — ٣٥٣) الذى كان ضد أثينا كما كان ضد فارس ، وعقد الحليفان صلحاً مع أثينا سنة ٣٥٥ . وبقيت كوس تابعة لكاريا حتى سنة ٣٤٦ . ثم وقعت تحت حكم الإسكندر الأكبر ، وبعد وفاته أخذت الميول القومية تتأرجح بين مقدونيا وسوريا ومصر . ووصلت الجزيرة أوج مجدها تحت حكم البطالسة . وفى النصف الأول من القرن الثالث حباها الله بشاعرين هما فيليتاس وتلميذه تيوكريتوس السيراكوزى . وخلال العصر الرومانى تمتعت كوس بنوع من الحكم الذاتى المحدود ، إذ كانت تتمتع بحريتها المدنية ضمن ولاية آسيا . وقد أعطى الإمبراطور كلوديوس (٤١ — ٥٤) الجزيرة امتيازات متنوعة متأثراً بطبيبة كسينوفون الكوسى .

(١٠) ك . استرتنيوس كسينوفون هو الطبيب نفسه المذكور فى الحاشية رقم ٩ . كان رئيس أطباء كلوديوس وأجرينا ، وينتمى إلى أسرة أسكليبيادية قديمة . أما أول كسينوفون كوسى فكان تلميذاً لبراكساجوراس الكوسى (القرن الرابع — النصف الثانى ق.م) (A.N. Modona, L'isola di Cos,).

(p. 128 وأما النقوش التى تحوى تكريس كسينوفون فرسومة فى اللوحة الثامنة من كتاب مودرنا .

(١١) جيوفراجيكا — سترابون Strabon, — الجزء الرابع عشر ؛ ص ٢ و ١٩ .

(١٢) كثير منها مرسوم فى كتاب : T. Meyer-Steineg und Karl Sudhoff, *Geschichte der Medizin im Ueberblic* (Jena, 1921; [*Isis* 4, 368 (1921-22)]; ed. 2, 1922) (*Isis* 5, 188 (1923)] وكتاب William Henry Denham Rouse *Greek votive offerings* (480 p p. ill.; Cambridge, 1902): أو مقالة Rouse فى موسوعة الدين والأخلاق المجلد الثانى عشر (١٩٢٢) ص ٦٤١ .

(١٣) إننى أزعم أن أسكلبيون كوس كان يوجه أموره ويتحكم فيه آل أسكبياد ؛ بينما تقوم شواهد قديمة بعض القدم على دعم زعم معاكس مؤداه أن الأطباء كانوا قد حصلوا على معلوماتهم الأولية من الهيكل . وفى ذلك يقول استرابون (النصف الثانى من القرن الأول ق . م .) : « يقال إن فن المعالجة بالحمية الذى استخدمه أبقراط مأخوذ على الأكثر من العلاجات المدونة على لوحات النذور فى كوس (كتاب الجغرافية ,Geography الجزء الرابع عشر ص ٢ و ١٩) . ويذكر پلينى (٢ — ١) حقيقة مشابهة فى الجزء التاسع والعشرين من كتابه « التاريخ الطبيعى» Natural History .

ص ١ (٢) و ٤ ومن المرجح جداً أنهما (استرابون و پلينى) كانا مخطئين رغم أنى لا أنفى إمكانية حدوث تبادل فى التأثيرات الحسنة بين الهيكل والطبابة .

(١٤) تعنى لفظة الأبتلون : (مكان) لا يداس ؛ حرم ؛ قدس الأقداس .

(١٥) هذا النص مأخوذ من كتاب *Asclepius*, Edelstein (المجلد الأول) فقرة ٤٢٣ النصب الأول فى أبيدوروس ، رقم ١ و ١٣ و ١٧ . ونقوش ذلك النصب تصف عشرين قضية ؛ وفى أعلاه كتب : « الله وحسن الطالع . ما شفاه أبوللو وأسكليوس » .

(١٦) حين أنشئ القسم الطبى لجيش الولايات المتحدة اختار لنفسه عصا وأفعيين ملتفتين حولها كشعار (مطرز على الملابس الرسمية إلخ) ؛ وكان ذلك خطأ إذ أن هذا لم يكن شعار اسكلبيوس إله الطب ، بل شعار هرمس (عطارد) إله التجارة والمواصلات .

(١٧) هنالك صورة جميلة للشجرة فى واجهة المجلد الرابع من كتاب Loeb, *Hippocrates* ، كما أن هنالك وصفاً لها فى صفحة ١٠٩ .

(١٨) روى هذه الرواية سنة ١٨٤٤ بعض مواطنى الجزيرة للعالم الألمانى Ludwig Ross (١٨٠٦ — ١٨٥٩) .

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٥١٦٦
الترقيم الدولى	ISBN 977 – 02 – 3365 – X

١ / ٩١ / ١٧٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)